# الحدود الإسلامية البيزنطية

## بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

## الكتاب الثالث

## في الاتصال الحضاري

تأليف

فتحي عثمان

الناشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

http://al-maktabeh.com

# الفصل السابع

# حياة السلم فى أراضى الحدود

## أولا : الثغور وحركة التبادل التجارى :

(أ) حركة التبادل التجارى ، ودور شمالى الشام والجزيرة والعرب فيها قبل الاسلام .

(ب) موقع الثغور واهميتها التجارية ، بالنسبة للتجارة المحلية بين الشام والجزيرة وارمينية وآسيا الصغرى ، وبالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب .

(ج) تجارة الشرق والغرب بعد الاسلام ودور ثغور الشام والجزيرة فيها ( من القرن ٧ الى ١٠ م ) .

## ثانيا : الثغور فى المجال الثقافى :

تراث الفكر اليونانى بين المسلمين والبيزنطيين

(أ) الاتصال الثقافى فى مدن الحدود .

(ب) الاتصال الثقافى عن طريق الأسرى .

(ج) السفارات العلمية .

(د) أدب الحرب .

(هـ) الفنون .

## ثالثا : الدين فى الثغور :

اهمية انطاكية فى الكنيسة المسيحية ـ الطابع الدينى فى صراع الفرس والروم ثم فى صراع المسلمين والروم :

(أ) الجهاد الدينى .

(ب) السياسة الدينية ازاء المخالفين فى الدين .

(ج) الأديرة ، الرباطات .

(د) التأثير المتبادل فى الفكر الدينى .

## رابعا : المجتمع فى الثغور :

http://al-maktabeh.com

« الحرب بين الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين سجال ، على أن كل فريق منهما كان يرى للفريق الآخر ضرورة وجوده .. **الأصل الحرب الدائمة ، ولكنها حرب محدودة تبقي - وتذر ، ويصاحب الحرب الدائمة علاقات سلمية دائمة في أعمال مشتركة** • وينسب لأحد الأكاسرة قوله : ان هناك عينين اثنتين وكلت اليهما القدرة الالهية أن تبصرا العالم: فعلى يد هاتين الامبراطوريتين العظيمتين يكبح جماح الشعوب المتبربرة المجبة للحرب ويتسنى للبشرية حكم أفضل وأشد أمنا فى كل مكان • واستمدت دولة الروم قوتها - وقتذاك - من قدرتها الاقتصادية ، فكانت الزراعة والصناعة والتجارة مزدهرة في ولاياتها الكبرى : آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ولكل منها قاعدة عالمية الشهرة : القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية (١) » •

بهذا التصوير قدم الاستاذ شفيق غبريال لكتاب ارشيبالد لويس « القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ٥٠٠ : ١١٠٠م »

وقد استمرت الصورة نفسها حين صار العرب هم القوة التى آلت اليها أراضى الفرس • بل وجزء كبير من أراضى الروم • وقد كتب نيقولا ميستيكوس Nicholas Mysticus بطريق القسطنطينية حوالى منتصف القرن ١٠م الى أمير جزيرة كريت أيام تبعيتها للمسلمين :

« ان أعظم قوتى العالم أجمع : قوة العرب وقوة الروم - تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء • ولهذا وحده يجب أن نعيش أخوة، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين (٢) » •

وفي هذا الفصل عرض سريع للجانب السلمى من العلاقات الاسلامية البيزنطية : فى مجال التجارة والثقافة والدين والمجتمع ، مع ابراز دور الثغور بصفة خاصة فى هذا الاتصال الحضارى •

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى - مقدمة الاستاذ شفيق غربال ص ١٥ - ١٦ •

(٢) فازيلييف : ترجمة بحث : بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium ملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٦٤ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٧٢
Vasiliev : L'Emp. Byz. Vol. I. p. 405



http://al-maktabeh.com

## أولا : الثغور وحركة التبادل التجارى

« أكد مؤرخو الأزمنة الحديثة الجمع فى دراسة واحدة بين القرى البحرية والتجارة .. واتخذوا لمعناه شعارا حينما قالوا : ( التجارة تتبع العلم ) (٣) » ، ومن هنا كان الارتباط بين القوة السياسية والعسكرية فى جانب وبين القوة التجارية فى الجانب الآخر .

وتشغل الثغور الشامية والجزرية موقعا حساسا على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب عموما ، وعلى طرق التجارة المحلية بين الشام وبين بلاد النهرين وآسيا الصغرى ومصر وبلاد العرب .

## التبادل التجارى ودور شمالى الشام والجزيرة فيه قبل الاسلام

وهذه المنطقة لها ماضيها التجارى العريق من قديم بحكم موقعها الفريد « فالدور الذى لعبته سوريا نتيجة موقعها بين القارات القديمة : أوربا وآسيا وافريقيا ـ تشرحه لنا أعمال الفينيقيين الذين كانوا أول التجار الدوليين .. وقد امتد الى أحد طرفيها وادى النهرين والى الطرف الآخر وادى النيل .. » ويمكن تتبع الطريق الدولى العظيم من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز فى سيناء ، كما يتفرع الى أراضى البخور فى جنوبى الجزيرة العربية . ومن سيناء يتحول الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر ، وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور

(٣) مقدمة الاستاذ شفيق غربال لكتاب ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة عيسى ص ١١ .



http://al-maktabeh.com

وصيدا وجبيل وسائر الموانى السورية ، ويسير الآخر الى الداخل فيتجاوز سهل مجدو ويعبر الأردن فى واديه الشمالى ثم يتجه رأسا الى دمشق فى الشمال الشرقى • ومن هنا **يتفرع عبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سوريا مع قلب بلاد الرافدين** الذى مثلته على التوالى : بابل والمدائن وبغداد ، أما الطريق الرئيسى فيتجه من دمشق غربا ويعبر لبنان الشرقى بواسطة ممر الزبدانى ويسير شمالا عبر سوريا المجوفة متبعا نهر العاصى وقادش الى شمالى سوريا ، ويتفرع فى سيره عند قادش فى اتجاه غربى ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة النهر الكبير • **وبعد أن يتفرع الطريق** فى شمالى سوريا عبر الابواب السورية فى جبل اللكام ( أمانوس ) ، ويتفرع الى الشمال الغربى عبر الأبواب القيليقية ليصل آسيا الصغرى - **فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السورى نحو الفرات** ، ومن هناك نحو الدجلة وجنوبا الى الخليج الفارسى : « ولقد سلك بعض أجزاء هذا الطريق التجارى العظيم سرجون وسنحاريب ونبوخذ نصر والاسكندر وبومبى وعمرو بن العاص وبونابرت واللنبى ، وابراهيم وموسى والعائلة المقدسة - كما سلكه كثيرون غيرهم • وكانت تنقل على هذا الطريق فى العصور القديمة والوسطى احمال العاج والذهب من افريقية والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبى بلاد العرب ، والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والاخشاب من سهول سوريا وجبالها • غير أن القوافل كانت تحمل أكثر من ذلك : فقد كانت تحمل معها أحمالا غير منظورة من الأفكار » •

فالأراضى الكائنة بين خليج الاسكندرونة - حيث يحدث البحر أعظم فجوة فى البر - وبين منحنى الفرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل **ممرا طبيعيا بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين** • وفى هذه المنطقة يتحول الحاجز الجبلى فى الشمال والغرب والحاجز الصحراوى فى الجنوب الى ممر واحد منخفض ، يؤدى الى واد من جهة والى بحر من جهة أخرى - ولذلك فقد سمى بالممر السورى • ويقع الممر فى سفح جبال طوروس - وهو المرحلة الأخيرة من خط المواصلات الذى يبدأ عند الخليج الفارسى ويصعد دجلة حتى ضواحى نينوى ، ثم يتجه غربا الى الموانى السورية « وفى هذا السهل يبدأ التاريخ السورى المستمر : وأول ممثلين للساميين هم العموريون ، ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمقدونيون - كل بدوره - السيطرة عليه كنقطة انتقال •• » وكانت ميتانى ( على المنحنى الكبير للفرات ) من أسباب اضمحلال بابل بحكم موقعها الجغرافى على طريق بابل الى سوريا :

http://al-maktabeh.com

فأصبحت عقبة أمام سلطة بابل فى آسيا الصغرى • وكانت أشور مركزا هاما على طريق القوافل بين البلاد فى شرقها وغربها ، كما ذهبت قوافلها لآسيا الصغرى للاتجار فيما تدره مناجم الفضة ، وقد حاولت أن تشق طريقها للوصول الى مياه البحر المتوسط • وهكذا **كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضى الداخلية التى تقع فيما وراء سوريا ، ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجارى تمر فيه معادن قيليقيه الخام الى امبراطورية بلاد النهرين** ، وكانت كميات الفضة والذهب التى وجدت فى قبور أور الملكية ( حوالى ٢٧٠٠ ق•م ) تمر غالبا بهذا الطريق ، كما كان أمراء سومر يحصلون على الأرز من جبل اللكام ( أمانوس ) بالاضافة الى الذهب من قيليقية • وتجار بلاد بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا الخشب المرغوب قد اكتشفوا ـ قبل ذلك العهد ـ المرتفعات المكسوه بالغابات فى جبال سوريا الشمالية •

**وكان الفينيقيون تجار البحر والبر** • فقد أصبحت طرقهم الرئيسية تبدأ فى صيدا وصور فتصل مصر ، أو تتجه شمالا الى قبرص ، وغربا الى ليكيا تحت جبال طوروس ثم الى جنوبى رودس، فكريت وجزيرة كورسيرا حتى صقلية ، ومنها الى مستعمراتهم فى شمالى افريقية فاسبانيا • وكان الفينيقيون أول من قدم أربع مواد هامة مفقودة فى كثير من بلدان البحر المتوسط : وهى الأخشاب والقمح والزيت والخمر وكانت محطاتهم التجارية فى الداخل تضم ادسا وربما نصيبين ـ بحيث **تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج الفارسى** •

**وبعث التجار الآراميون قوافلهم الى جميع مناطق الهلال الخصيب بل الى منابع الدجلة فى الشمال** ، واكتشفت فى خرائب نينوى بعض الموازين البرونزية التى تركوها ـ **وكانوا يحتكرون تجارة سوريا الداخلية ، كما كان يحتكر ابناء عمومتهم ومنافسوهم الفينيقيون التجارة البحرية** ، وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانىء البحر • وقد تاجر الأراميون بالأرجوان من فينيقية والمطرزات والكتان واليشب Gaspar والنحاس والأبنوس والعاج من افريقية و ( بمحصول البحار ) الذى ربما كان اللؤلؤ الذى اشتهر به الخليج الفارسى خلال العصور •

وجاءت الامبراطوريات الكبرى : **امبراطورية الفرس وامبراطورية الاسكندر** ، وأصبحت الشام كما أصبحت بلاد النهرين جزءا من امبراطورية عظيمة ، واعتنى بالطرق وأخذت المدن الفينيقية فى الازدهار

http://al-maktabeh.com

وواصلت نشاطها التجارى ، خاصة وقد شملت الامبراطوريتان الكبيرتان على التوالى رقعة ضخمة من العالم المعمور حتى أضحت معظم مسالك تجارة الشرق والغرب فى حمى دولة واحدة ضخمة • فلما تجزأت امبراطورية الاسكندر بين قواده « كانت سوريا العمود الفقرى **للامبراطورية السلوقية (السليوكية)** ، وانطاكية رأسها السياسى ، وسلوقيه ( سليوكيا ) عاصمتها التجارية ، وأفامية مقرها الحربى ، وسلوقية (سليوكيا) على الدجلة عاصمة جناحها الشرقى ، وساردس عاصمة جناحها الغربى » • واهتم السلوقيون بربط هذه الأرجاء بالطرق ، فتمتع العالم الهلنستى — حتى فى عهد تجزئته — بمقومات تحقق شيئا من الانسجام الثقافى والاقتصادى • ويبدو أن السياسة السلوقية كانت تهدف الى أن تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والهند وأواسط آسيا للاستهلاك المحلى والمرور ، كما تهدف الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع الغرب وخاصة العالم اليونانى — الرومانى •

وهذه السياسة أدت الى تنافس البطالمة مع السلوقيين على تجارة الترانسيت ، فمنتجات الهند يمكن أن تأتى بحرا الى اليمن Arabia Felix لتصبح جزءا من تجارة الجزيرة العربية فتنقل برا الى البتراء وبلاد البطالمة ، كما يمكن أن تتجه بحرا عن طريق الساحل الغربى للخليج الفارسى فتمر بالعقير Gerrha وتصعد دجلة الى سلوقية ويتجمع هناك أيضا ما تجلبه تجارة القوافل البرية ثم تتجه غربا فتصعد الفرات مارة بدورا — أوروبس Dura - Europos الى أنطاكية أو تتبع الطريق القديمة شرقى دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمر وتسير غربا الى نصيبيين فادسا ثم أنطاكية أو دمشق . وقد جعل هذا من سلوقية على دجلة مركز توزيع البضائع بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلفا لبغداد فى العصور الوسطى . وقد بقيت هذه الطريق التجارية الشرقية التى تمر بسلوقية على دجلة مطروقة خلال القرن ٣ق .م ولكن فى الفترة المضطربة فى أواخر القرن ٢ وأوائل ١ق .م أصبحت الطريق الصحراوية المارة بتدمر أكثر ملاءمة ، وخاصة لأن القبائل التدمرية كانت فى وضع يمكنها من ضمان الأمن والمياه ، واستمرت الأمور على هذا النحو ٤ قرون . وكان بامكان القوافل الآتية من مصر والبتراء أو الساحل الفلسطينى أن تتبع الطريق الساحلية حتى اللاذقية ومن هناك تتصل بسلوقية وانطاكية ، أو يمكنها أن تنعطف من مجدو أو صور الى دمشق متتبعة الطريق القديمة الكبرى . أما القوافل القادمة من أرواد أو مارثوس فيمكن أن تتبع الطريق الساحلية شمالا أو تستدير شرقا باتجاه حمص وافاميه . وكانت سلوقية

http://al-maktabeh.com

أو جارتها أنطاكية على نهر العاصى الصالح للملاحة وقتذاك نقطة التقاء القوافل المختلفة . وكان السلوقيون فى ذروة حكمهم سادة طريق الحرير التى تخترق الهضبة الايرانية وآسيا الوسطى حتى منغوليا ، وكان قسم كبير من الطريق يقع فى الامبراطورية السلوقية . **والتقت منتجات الشرق الأقصى بمنتجات الهند وغربى الجزيرة العربية فى بلاد الرافدين ، وانتقلت غربا أما بطريق نصيبين وادسا ( الرها ) أو بطريق دورا – أوروبس –** وكانت احدى المراكز رالقوية التى أسسها السلوقيون لتحمى الطرق الرئيسية كما كانت محطة قوافل ، وهى فى موقع متوسط بين سوريا وبلاد الرافدين . وقد تطورت من حصن قوى الى سوق تجارية هامة ، وموقعها ذو منعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويحيط بها واديان سحيقان . وقد بلغت ذروتها كمركز للقوافل فى عهد البارثيين واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات، واحتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦م بقليل وهدموها . وكانت جرها Gerrha أهم مركز تجارى على الخليج الفارسى ، وهى مدينة عربية تقريبا لها واجهتها البحرية كما لها موقعها على طرق القوافل الكبرى ، ومنها طريق يصلها باليمن جنوبا بينما تتجه طرق أخرى فى قلب الصحراء الى تيماء فالبتراء . وكان الاتصال البحرى الرئيسى بين الهند والامبراطورية السلوقية يتم بواسطة العقير ، كما كان السلوقيون يتزودون بحاجاتهم من بضائع الجزيرة العربية عن طريقها خاصة حين كانت سوريا الجنوبية جزءا من دولة البطالمة – وأهمها المر واللبان والعطور . وكانت بضائع الجزيرة العربية والهند وأواسط آسيا المصدرة الى سوريا يستهلك جزء منها محليا ، ويعاد تصدير الجزء الآخر الى الغرب . وقد كان للتجارة دورها الكبير فى ازدهار سوريا ، وكانت تتألف من منتجات سوريا الزراعية والصناعية – مثل الزجاج والنسيج – بالاضافة الى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة فى شرقها – وكانت تجارة الرقيق من العناصر الهامة فى التجارة السورية (٤) . وهكذا بينما كانت الحاصلات الهندية العربية وحاصلات شرقى افريقية من توابل وعقاقير وعاج ولآلىء تحمل الى موانىء مصر برنيق Berenice وميوس هورموس Myos Hormos وارسينوى Arsinoe والقلزم Clysma ومنها تنقل الى أسواق الاسكندرية – كان حرير الصين ينزل فى ايله أو ليوكى كومى Leuce Come أحيانا ( الحوزة ) وتحمله القوافل الى سوريا . وكان

---

(٤) حتى : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٥ ، ٦٤ – ٥ ، ٧٤ – ٥ ، ١٠٤ – ٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩ – ١٥٠ ، ١٨١ – ٢ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩ : ٣٠١ ، برستد : انتصار الحضارة – ترجمة دكتور فخرى ص ١٩٨ : ٢٠٣ .



http://al-maktabeh.com

الموقع الجغرافى الممتاز لسوريا بالنسبة للتجارة الشرقية عبر الطرق البرية يرفع من قيمة مكانها بالنسبة للتجارة البحرية القادمة من الخليج الفارسى بل ومن البحر الأحمر أحيانا ـ وهذا من خصائص سوريا التى مكنتها من منافسة مصر بنجاح فى السيطرة على تجارة بعض البضائع وتسويقها حتى خلال العصور الوسطى ـ أما بالنسبة للشمال فقد اتصلت البداوة والتجارة فى أقصى شمالى الجزيرة ، وقامت أسواق فى بعض مراكز مثل أورفا ( الرها ) وقد عمل البدو من العرب فى نقل بضائع التجار الاغنياء فى المدن المستقرة بينما اغار سكان الجبال الاكراد على القوافل وهى تجتاز الطرق التجارية • وقد عملت المنافذ عبر الجبال الممتدة طوليا فى سوريا كمسالك بشرية وتجارية بين الداخل والساحل ومن أهمها بوابة حلب ، ومنفذ اليرموك ـ برج ابن عامر Esdraleon والمنطقة المنخفضة جنوب مؤاب ومرتفعات اليهودية Judaea وقد شاركت **حلب** ( Khalpa القديمة ) فى النشاط التجارى عبر الطريق الملكى Royal Road **الذى يربط بين افسوس على بحر ايجة وبين مدن الامبراطورية الفارسية، كما كانت مستودعا للتجارة بين موانى الساحل السمانى لفينيقية مثل انطاكية واللاذقية وطرسوس وطرابلس من جهة وبين مدن شمالى الهلال الخصيب مثل نصيبين وادسا (أورفا) وماردين وغيرها** • وسوف تقاسمها هذا الخير حماه وحمص فى العصور الوسطى لسهولة مواصلاتها مع الساحل عن طريق العاصى والنهر الكبير (٥) •

**( أ ) كان شمالى الشام والجزيرة اذن طريقا الى الاتصال بالهضبة الايرانية،** التى كانت بدورها معبرا بين آسيا الغربية والشرقية ـ اذ اتصلت فارس بالصين من قديم ، ويقوم أول شاهد تاريخى على التأثير المباشر **لهذا** الاتصال فى القرن ٦ق٠م٠ وبعد قيام الصين الموحدة كان أمامها طريقان للاتجار مع الغرب : البر والبحر ، ويمكن القول عموما بأنه حين تركزت قوة الامبراطورية فى الشمال كان الاهتمام بطريق التجارة البرية على عكس الحال حين تركزت قوة الامبراطورية فى الجنوب • كذلك أدى توسع الصينيين البحرى الى الاتصال بمنطقة الملايو الهندية Indo-Malaysia وساعد توسع الفرس البحرى على اقامة اتصال مباشر بين جنوبى شرقى آسيا والشرق الأقصى ، وكان الخليج الفارسى مجالا طيبا للتقدم الملاحى المبكر ، وهناك نظرية ترجع موطن الفينيقيين الأصلى الى الخليج الفارسى • وقد استفاد الاشوريون والبابليون من هذا الخليج فى اقامة العلاقات

---

(٥) Huzayyin: Arabia and the Far East. p. 11-3. 102.



http://al-maktabeh.com

التجارية مع سواحل عمان والبحر العربى وربما الهند نفسها • وكانت البضائع المتبادلة هى اللبان والتوابل واللآلىء والمعادن والاخشاب • وقد اهتم الاكمينيون بطرق التجارة البرية على حساب الطرق البحرية ، ولم تكن سيطرة السلوقيين على الخليج الفارسى فعالة اذ قامت امارة محلية عند مصب دجلة والفرات وجاء البارثيون ـ وموطنهم شمالى ايران ـ فاهتموا باحتكار التجارة البرية بين الصين ووسط آسيا والهند من جانب وبين الاقاليم الرومانية من جانب آخر • واهتم التجـــار الاغريق من سوريا وفينيقية ومصر بطريق البحر الأحمر ، كما نشطت قبائل الانباط فى تجارة طريق الحجاز الذى يربط جنوبى بلاد العرب بالبحر المتوسط ، وفى عهد الساسانيين ـ وموطنهم جنـــوبى ايران ـ ( حوالى ٢٢٥ـ٦م ) أخذ الخليج الفارسى يستعيد أهمية التجـــارية • وأدت المنافسة بين ذراعى المحيط الهندى : البحر الأحمر والخليج الفارسى الى صراع الفرس والروم للسيطرة على الطرق التجارية (٦) •

(ب) وفى الوقت نفسه **كان شمالى الشام والجزيرة طريقا للاتصال بآسيا الصغرى وشواطىء البحر المتوسط** من جهة أخرى • ويمكن تتبع التوغل التجارى الاغريقى فى بلاد العرب فى النظام النقدى قبل الاسلام• فهناك دلائل على تداول العملة الاتيكية فى القرن ٥ ق•م• فى جنـــوبى فلســطين وشمالى الحجاز ثم تغلغت جنوبا فى قلب بلاد العرب حتى أدركت آثارها حملات المعينيين والسبئيين والحميريين والقتبانيين• ثم قامت امبراطورية الاسكندر فزادت النفوذ الاغريقى الاقتصــادى فى الشرق ، وقامت الدولة البكترية Bactrian Kingdom جنوبى التركستان وشمالى غرب الهند كنموذج مثالى للدولة التجارية ، اذ قامت حياتها على احتكار تجارة وســـط وشرقى آسيا • واستفادت دول الارشـــاقيين Arsacids ( فى بارثيا ) والسلوقيين من موقعهـــا الممتاز على الطرق التجارية ، وحاول البطالمة فتح سبل الاتصال البحرى مع الحبشة والهند والتقوا فى طريقهم بالعرب الجنوبيين والهنـــود وغيرهم ، وغدا نفوذهم محسوسا بصفة خاصة على ساحل اكسوم Auxome حيث قامت فيما بعد دولة تسير فى فلك بيزنطة وتعتنق المسيحية (٧) •

وقد بلغت المبادلات التجارية السورية ذروتها **أيام الحكم الرومانى** ، وغدت مدن القـــوافل كالبتراء وجرش وبصرى وتدمر ودورا أورويس

---

(٦) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 17:22, 76:8. 87...

(٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 25:7.

http://almaktabeh.com

Dura Europos مراكز تجـــارية مزدهرة . ثم نشـــطت الطرق البحرية حين أعاد تراجان تجديد القناة التى تصل النيل بالطرف الشمالى الغربى الاقصى للبحر الاحمر والتى كان الفراعنـــة القدماء أول من بدأ بحفرها ، وصدرت المدن الفينيقية البلح وأحسن دقيق القمح . وكان اللبان المصدر من سوريا يأتى من جنوبى الجزيرة العربية ، كما صدرت المحاصيل من نباتات غربى آسيا من عقاقير وعطور تمتعت بشهرة عالمية ، وغالبا ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة الميعة والسلفيوم Silphium والمجيداريس Magidaris والناردين الآتية من سوريا . كما كانت تصدر الخمور والزيوت والثمار المجففـــة والدهون . ووجدت فى مصر وقبرص وايطاليا وكولونيا وجنوبى روسيا آنية من زجاج صيدا ترجع الى القرن أم ، كما عاش أحسن عمال للبرونز فى صيدا . ووجدت فى أمكنة متعددة خارج سوريا آثار النسوجات السورية من كتانية وصوفية وحريرية . واشـــتملت الواردات السورية على الخزف من اليـــونان وايطاليا ، والسمك المجفف من مصر وأســـبانيا ، والبردى من مصر ، والمر والبخور من جنوبى الجزيرة العربيـــة ، والتوابل والجواهر من الهند ، والحرير من الصين . وكانت عكا مركزا هاما لتجارة السمك . وانتعشت الخصائص الفينيقية القديمة ، ونشط السوريون فى المغامرات التجارية وانتشرت حواضرهم على طول شاطىء البحر المتوسط ، وعلى الطرق التجارية الرئيسية ، ومجارى الانهار الكبرى فى الداخل ، كمـا وجدت جالياتهم فى جزيرة ديلوس الايجية وصقلية والميناءين الايطاليين نابلى وأوسيتا ، ووصلوا عن طريق الدانوب الى بانونيا Pannonia وعن طريق الرون الى ليون وكان لهم مراكز فى اسبانيا والفال . واحتكر التجار السوريون تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، ولم يكن لهم منافس كصيارفة ، وكانت ســلعهم تســتخدم كنماذج يجرى عليهـا التعليم هناك (٨) .

وارتبطت دمشق أيام الرومان بطرق القوافل التى تسير فى جميع الاتجاهات : الى تدمر Palmyra والفرات ، وفى اتجاه الشمال الى ابيفانيا Epiphania ومنها يمكن الوصول الى مدن نهر العاصى حتى انطاكية ، كما يمكن الوصول عن طريق خالكيس Chalcis وبيروا Beroea الى معبر الفرات الشـــهير عند زيجمـا Zeugma أو غربا الى ممرات جبل اللكام ( امانوس ) Amannus فى قيليقية .

---

(٨) حتى : تاريخ سوريا ج ١ ترجمة دكتور حداد وعبد الكريم رافق ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ـ ٤ .

http://almaktabeh.com

وقد تفرعت الطرق من انطاكية فى كل اتجاه : غربا الى قيليقية ثم بيزنطة نفسها ، وشرقا الى تدمر Palmyra والفرات وبابل ، وشمالا الى معابر الفرات الهامة عند سميساط Samosate وزيجما Zeugma والى مناجم الحديد ومقالع الحجر فى تلك المناطق.وبعد عهد تراجان كانت هناك ٥ طرق تمر بالمدينة وكان هناك مركز اقتضاء المكوس ، وفى هذه المنطقة وبجوار قورس Cyrrhus اكتشف الكثير من آثار الرومان وقناطرهم .

وكانت هناك طرق من مدن الداخل الهامة الى الساحل : فارتبطت انطاكية بسلوقية (سليوكيا) ، وفاميه ( اباميا ) باللاذقية ( لاوديكيا ) وحمص بارواد ( ارادس ) ، ودمشق بصيدا ، وأورشليم بقيصرية . وكانت هناك طرق محلية فى منطقة بحيرة طبرية ، ولكن الخطوط الرئيسية للمواصلات كانت تسير شمالا وجنوبا ، وفى كثير من المواضع كانت التربة الصحراوية متماسكة بدرجة كافية ، ولم يكن يحتاج الا الى قناطر على المجارى السريعة ، كما يحتاج لتعبيد أجزاء الطرق التى تؤدى الى داخل المدن مثلما حدث عند انطاكية. وقد كان وجود القوات الرومانية وما كفلته من اقرار النظام والأمن أكبر ضمان للتجار والمسافرين ، وبعد ضم تراجان لاقليم العرب الصخرية أقيمت مجموعة طيبة من الطرق المعبدة شرقى نهر الاردن وأقيمت فى أقصى الشرق مراكز الحراسة والبريد ، كذلك نظمت الطرق الرئيسية فى سوريا والولاية اليهودية ( جوديا ) وعبدت بعناية ، وحمى الطريق من انطاكية الى الشرق بفرق مسلحة قدمتها البلديات واعتنى بها بدرجة كبيرة . ولقيت طرق شمالى سوريا اهتماما كبيرا ، ووضعت عليها العلامات الدالة على المسافات بالاميال . ووجهت عناية أيضا الى الطرق المائية الموجودة : فأمكن الوصول الى انطاكية من مينائها سلوقية (سليوكيا) بعد ابحار يوم فى الارنط ، وكانت هناك رحلات مائية أقصر . كذلك اعتنى بموانىء ساحل البحر المتوسط وان لم تكن كبيرة مثل سلوقية (سليوكيا) واللاذقية وارواد Aradus وبيروت وبطلمية وجوبا وعسقلون وغزة ، فازدهرت تجارتها وملاحتها .

وقام فسباسيان باصلاحات كثيرة فى سلوقية بصفة خاصة وهى الميناء الاكبر لشمالى سوريا . وازدحمت هذه الموانى بالسفن من سوريا والاسكندرية وآسيا الصغرى ، وكان يوصل الى روما عن طريق الاسكندرية . وكانت الاقاليم الشرقية فى الدولة الرومانية عموما تمثل مراكز الصناعة والنسيج والسجاد والخزف والزجاج وغيرها ، وان كانت

http://al-maktabah.com

تتميز أيضا ببعض المواد الخام، بينما كانت الاقاليم الغربية هى المستودع الضخم للمواد الخام خاصة المعادن من ذهب وفضة ونحاس ورصاص وصفيح وحديد وغيرها ثم أخذت الصناعة تدب تدريجيا فى الغرب أيضا. وكان للجاليات الشرقية - ومنها سوريون - فضل كبير فى ذلك . وقد بذلت محاولات - خاصة فى عهد أغسطس - لتعبيد وتأمين الطريق بين آسيا الصغرى وسوريا التى تجتاز الابواب القيليقية وكان هناك طريق جنوبى فى آسيا الصغرى يخترق مناطق تكثر فيها فرص التجارة ، وعن طريق الابواب القيليقية كان يمكن الولوج جنوبا الى انطاكيا بسوريا أو عبر الجبال الى الفرات عند زيجما ، كما كانت هناك **شبكة من الطرق المستعرضة التى تربط بين الطرق الرئيسية - مثل الطريق الذى يربط بين سينوب** Sinope **وطرسوس** Tarsus .

وأدى نشوب الاضطرابات بين الرومان وأمراء الولايات الحاجزة الحليفة من جهة ، وتزايد قوة بادثيا من جهة أخرى الى اتجاه الرومان الى تحويل هذه الولايات الى أقاليم تابعة للدولة مباشرة ، وتأمين الطرق المؤدية الى الفرات بالحاميات . فوضعت بنطس Pontus وارمينية الصغرى تحت الحكم (الرومانى) المباشر ، وربطت بالجزر حول قيلقيه ببقية اقليم كابادوكيا ، ووضعت حاميات قوية فى ستلا Satala وملطية Melitene ووصل بينهما طريق أقيم فى عهد فسباسيان ، وكان الاشراف على هذه المنطقة العليا وامتلاك معابر سميساط Samosate وزيجما Zeugma يعنيان أن الفرات كله صار تحت رقابة الرومان(٩) .

**وحملت متاجر الهند وسيلان وحرير الصين عن طريق البحر الاحمر ، وعن طريق الخليج الفارسى** بمدنه التجارية : جرها Gerrha وعمان Ommana ، وشراكس Charax Spasini التى امتد منها طريق على طول الفرات الى الشمال الغربى حتى يتصل بطريق الشرق البرى الكبير عند سلوقية ( سليوكيا ) .

وخلاصة ما ورد عن جرها Gerrha انها من المراكز التجارية الخطيرة ، وملتقى طرق القوافل الواردة من بلاد العرب الجنوبية ومن الحجاز ومن الشام والعراق ، كما كانت سوقا للتجارة البحرية تستقبل تجارة افريقية والهند وبلاد العرب الجنوبية وتعيد تصديرها الى مختلف

(٩) Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. pp. 37:42, 78: 84, 237-8.

http://almaktabeh.com

الاسواق بطريق القوافل البرية حيث ترسل عن طريق حائل وتيماء الى موانى البحر المتوسط ومصر أو بالطريق البرى الى العراق ومنه الى الشام ، وقد ترسل بالسفن الى سلوقية Seleucia أو بابل و Thaposcus ومنها بالبر الى البحر المتوسط ، وتستقبل تجارات البحر المتوسط والعراق والاسواق المتعاملة معها لتعيد تصديرها الى بلاد العرب الجنوبية وافريقية والهند وربما الى ما وراءها ، فهى سوق وساطة (ترانسيت) • وهى كما فى كتب الكلاسيكيين واقعة فى بلاد العرب الشرقية على ساحل الخليج على مسافة منه أو عليه مباشرة ، ويرى البعض انها العقير ، أما مدينة Charax فاول من أشار اليها المؤرخ بلينوس، وقد أنشأ الاسكندر فى جملة المدن التى أنشأها فى الشرق ويظن انها المحمرة(١٠) ، ولقد روى ان اليهود أسسوا لأنفسهم مستعمرة على ساحل ملبار بالهند عندموزيريس Muziris قرب موضع Crangnnare الحالية بعد سقوط اورشليم ومثل هذه الاسطورة ايا كان نصيبها من الصحة تبين اهمية هذا الساحل التجارية • وقد سعى تجار الرومان بدأب حتى عبروا مضيق ملقا سنة ١٦٠م ووجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الصين ، وكان الرومان جد حريصين على الاتصال بالصين ولكن البارثيين دأبوا على الحيلولة بينهم وبين هدفهم ، وأوفد الامبراطور ماركوس أورليوس بعثة تجارية الى الصين نجحت فى مهمتها وأخذت التقارير الصينية تذكر بلاد Ta-Tsin وتعنى الحدود السورية للامبراطورية الرومانية ، وبدا فيها تقدير أمانة التجار، الرومان ونزاهتهم ، كذلك تكلم بليني وبطليموس عن فراء التبت • واتجهت السياسة الرومانية الى تشجيع التجارة البحرية للاستيلاء على العائدات الباهظة منها ومنعها من أن تقع فى أيدى البارثيين حيث كان الطريق الذى يخترق بلادهم طويلا معرضا للناهبين والمشاغبين(١١) •

وقد حاول الرومان القضاء على طريق الخليج الفارسى الذى يتحكم فيه خصومهم ـ لصالح طريق البحر الاحمر الذى يسيطرون عليه فى مصر وسوريا ، سيما وقد تزايدت مطالبهم للبان والتوابل واللآلىء والعاج والدقيق ومنسوجات الهند القطنية وحرير الصين وفرائها وحديدها •

وكان العرب الحميريون يهددون مصالح الرومان عند المدخل الجنوبى

---

(١٠) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٢ ص ٣٧٥ ، جـ ٣ ص ٢٧٧ ، ص ٤١٨ وما بعدها •

(١١) Huzayyin : Arabia and Far East. pp. 95:106, Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Rom. Emp. pp. 67:73.

http://al-maktabeh.com

للبحر الاحمر ، وفي عهد اغسطس جردت حملة بقيادة آليوس جالوس Aelius Gallus ٢٥ق٠م ابحرت من ارسينوس Arsinos الى ليوكى كومى Leuce-Come ( الحورة ميناء البتراء عاصمة الانباط ) ويشك فى مدى معاونة الانباط لها ٠ وقد تقدمت نحو جنوبى بلاد العرب لاخضاع الحميرين وانتزاع موارد ثروتهم ٠ وتعرف أحد الرعايا الرومان Hippalos على طريقة الاستفادة من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية حوالى سنة ٤٠ ـ ٥٠م في السفر مباشرة عن طريق البحر من خليج عدن الى الهند ، وربما كان ذلك معروفا لدى تجار البحر العربى الذين عبروا المحيط الى مواضع مختلفة من ساحل الهند ولكنهم لم يفشـــوا سرهم الى منافسيهم الاغريق المصريين ٠ وهكذا كان ما وصل اليه هيبالوس كشفا من وجهة نظر الرومان وحدهم ، وقد أفاد هذا الامبراطورية في مواردها وتجارتها ، كما اضعف من تحكم العرب الجنوبيين ويذكر لنا سترابو أن القوافل من ليوكى كومى Leuce-Come الى البتراء Petra كانت من الضخامة لدرجة انها تقارن بجموع الجيوش ، وسارت حركة الملاحة بين مستودعات الجنوب الغربى لبلاد العرب وموانىء ساحل الانبـاط ، واندفع الملاحون المصريون والاغريق والسوريون موغلين في البحار الشرقية(١٢) ٠ وفى خلال القرن الرابع الميـلادى وجزء كبير من القرن الخامس الميلادى كانت الظروف المحلية فى جنوبى شرقى آسيا تضعف من ملاحة الصين وتجارتها٠ فكانت القوة الشرائية للامبراطورية الرومانية الغربية تنهار بسرعة، بينما كانت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى دور التكوين ٠ وكذلك كان الحال فى غربى آسيا أيضا ٠ وغدت الحركة ضئيلة فى خطوط البحر الاحمر والخليج الفارسى والطرق البرية عند الحدود السورية وفى وسط آسيا ، وأخذت تتدهور أسواق الشرق الرومانى عموما ٠

**وهكذا تميز طوران فى تاريخ العلاقات التجـارية بين شرقى آسيا وغربيها ، وهماما يسميان : بالطور الاغريقى الرومانى والطور الايرانى ( الفارسى ) العربى** ٠ ويمكن تسجيل البداية الحقيقية للنشاط البحرى الصينى من حوالى وسط القرن الخامس الميـلادى وبداية القرن السادس الميلادى(١٣) ٠

وشهد غربى آســيا تغيرات . ففى أوائل عهـد الامبراطورية الرومانية ، كانت الجهود مركزة فى فتح طريق البحر الاحمر والسـيطرة

(١٢) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 110 : 3, 119.
(١٣) Huzayyin : Arabia and the Far East. p. 126.

http://al-maktabeh.com

على المراكز التجارية فى بلاد الانباط فى جنوبى فلسطين وفى شمالى الحجاز وعندما نهضت التجارة الهندية فى الخليج الفارسى فى بداية القرن الثانى الميلادى كان الطريق من رأس الخليج الى البحر المتوسط يجتاز حدود صحراء النفود بين شراكس Charax Spasini والبتراء الى غزة ، وقد احتل الرومان البتراء سنة ١٠٦م فى عهد تراجان كما حاولوا توطيد نفوذهم فى شراكس . وبعد قرن أو قرنين أخذت المراكز التجارية على **جانبى الصحراء فى سوريا وبين النهرين تنتقل تدريجيا صوب الشمال ،** وحلت بصرى وتدمر Palmyra ودمشق محل البتراء وتيماء ، كذلك حلت الحيرة وبتناى Batnae محل شراكس وابولوجوس Apologos كمركز لتجمع التجارة البرية والبحرية .

وتأسست الامارتان الحاجزتان للغساسنة واللخميين منذ القرن الثالث الميلادى فصاعدا على حدود الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية ليأخذا مكانيهما الى الشمال قليلا من سالفيتهما : الانباط وميسين خراسين Mesene-Kharacene **ومن اهم أسباب هذه النقلة صوب الشمال ارتقاء موانى ساحل فينيقية ـ بدلا من غزة ـ عند قيام الامراطورية البيزنطية ، وتقدم مدن شمالى سوريا وبين النهرين كمراكز تجارية ودينية** . وربما كان ما يعزى من جفاف فى شمالى الجزيرة العربية قد أدى الى التدهور التدريجى للاجزاء الجنوبية من الصحراء السورية من رأس الخليج الفارسى الى الركن الجنوبى الشرقى للبحر المتوسط ، مما حفز الى الهجرة منها .

غير انه من الصعب ان تعزى هذه الحركة صوب الشمال الى انتعاش الطرق البرية عبر وسط آسيا وشمالى ايران على حساب الطريق البحرى للخليج الفارسى ، لان تلك الطريق كانت مازالت متأخرة . وفى الوقت نفسه كانت القبائل من جنوبى بلاد العرب وجنوبها الغربى تهاجر الى ساحل الخليج الفارسى وأطراف الهلال الخصيب من جهة وسواحل الحبشة والصومال من جهة أخرى ، وكان لهذا آثاره على التجارة .

واجتهد الساسانيون الأوائل بدورهم ( ٢٢٥ ـ ٦٣٨ م ) فى تنشيط تجارة الخليج الفارسى ، **فتجددت المنافسة بين الخليج الفارسى والبحر الاحمر بالنسبة لتجارة المحيط الهندى . وبينما كان الخليج تحت سيطرة الساسانيين وحدهم ، كان البحر الاحمر موزعا بين عناصر متنافسة من رومان وهنود وعرب ـ وكانت النتيجة لصالح الخليج الفارسى الذى اجتذب معظم التجارة الشرقية ، ومنه كانت تحمل فى دجلة والفرات ثم تنقلها**

http://al-maktabeh.com

القوافل الى السوق العظيم تدمر Palmyra على الجانب السورى • وأدت الخصومة السياسية بين الروم والفرس الى عرقلة التجارة ، وحطم أورليان فى أواخر القرن الثالث الميلادى تدمر التى عملت وسيطة بين الجانبين فأفاد ذلك تجارة البحر الاحمر نسبيا • وادى اتساع نفوذ ملوك سبأ الحميريين الى الاتصال باكسوم على الساحل المقابل وكانت مركزا تجاريا هاما ، وانتهى أمرها بأن دخلت فى فلك الروم semi-vassal وانتقل اليها مبشرو المسيحية وقويت أكسوم تدريجيا واستولت أسواقها فى القرن الخامس الميلادى على معظم تجارة البحر الاحمر ، واستطاعت أن تغزو اليمن سنة ٥٢٢ م على أثر اضطهاد ملكها اليهودى ذى نواس لنصارى نجران، وكان هذا يعنى تركز التجارة كلها فى أيدى الاحباش. ويذكر بروكوبيوس ان جستنيان ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م أرسل سنة ٣٥٠ ـ ١م بعثة تجارية الى اكسوم لتعرض على أهلها تحقيق أرباح طائلة عن طريق شراء الحرير من تجار موانى الهند وسيلان وبيعه للرومان ، ويكون ذلك فى الوقت نفسه خدمة جليلة للرومان حتى لا يدفعوا أموالهم لاعدائهم الفرس. ويمضى المؤلف قائلا : انه كان من المتعذر على الأثيوبيين شراء الحرير من تجار الهنود ، لان التجار الفرس كانوا أقرب الى مراسى السفن الهندية بحكم مجاورتهم لها وهكذا كانوا يتمكنون من السبق الى شراء بضائع تلك السفن • **والواقع ان الامبراطورية الساسانية بسيطرتها على جانبى الخليج الفارسى استفادت كثيرا من التحكم فى التجارة ، وما كانت لتسمح بنمو طريق البحر الاحمر** • وقرب نهاية القرن السادس الميلادى أرسل انوشروان حملة الى اليمن أجلت الاثيوبيين عنها ، كما أرسل أسطولا الى سيلان ( سرنديب ) وفق رواية حمزة الاصفهانى • وهكذا كان الخليج الفارسى يشهد تجارة متضخمة فى عشرات السنوات التى سبقت الاسلام (١٤) • وقد ذكر المسعودى أن سفن الصين والهند كانت تصل لملوك الحيرة ، مما أثار جدلا حول تحديد وقت وصول الجنك الصينى الى الحيرة ، فرأى يرجع ذلك الى القرن الثالث الميلادى ، ورأى يرجعه الى لربع الاول من القرن الخامس الميلادى ، وآخر يرجعه الى وقت معركة القادسية ، وربما كان الارجح أن ذلك كان فى بداية القرن السادس الميلادى • وقد كانت هذه التجارة مورد ربح كبير للخميين والساسانيين على السواء ، ولكنها بدأت تتدهور قبيل الاسلام لعدة

---

(١٤) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 130 : 4. حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ترجمة دكتور بكر ص ٩١ : ٥ ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة أحمد عيسى ص ٥٢ ـ ٣ •

http://al-maktabeh.com

عوامل : منهـا الصراع السـياسى بين البيزنطيين والساسانيين ، واضطرابات البدو المتجددة على أطراف الهلال الخصيب ، فضلا عن التغيرات المتعددة للمجارى الدنيا لدجلة والفرات التى كانت تعرقل الملاحة وتنقل مواقع الموانى . فيذكر المسعودى مثلا طغيان مياه دجلة على كلد يا سنة ٦٢٧ م . وهذه الظروف الملاحية تؤثر على الجنك الصينى بصفة خاصة لحجمه الكبير وفقا لوصف المصادر العربية والصينية على السواء ، مما اضطر ملاحى الخليج الفارسى الصينيين الى اتخاذ سيراف ومسقط موانى لهم فى الجنوب ، ومنها تنقل القوارب الصغيرة المتاجر الصينية والشرقية الى مصب دجلة والفرات . ومن هذا كانت أهمية ميناء جرها فى القرن السابع الميلادى كمدخل شرقى لوسط بلاد العرب ومكة ، وحلول الطريق من جرها الى نجد الوسطى ومكة وشمالى الحجاز فسوريا محل الطريق من موانى بابل عبر الصحراء السورية الى الحدود البيزنطية ، وربما فضل الوسطاء المحايدون الطريق الجديدة لبعـده عن نفوذ الروم والفرس نسبيا . واستمر نشاط تجار الصـين فى البحـار الغربية بعد الاسلام ، وفى سنة ٨٥١ م تكلم سليمان التاجر - أول رحالة عربى وصلتنا كتابته عن بحار وأراضى جنوبى آسيا وجنوبها الغربى - عن السفن الصينية وتجارتها مع سيراف (١٥) .

واستعمل الطريق بين البحر الاسود وبحر قزوين من أيام جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥ م ) ومنذ سنة ٥٦٨ م فصاعدا تبودلت السفارات بين الترك الغربيين والبيزنطيين ، ولعل سياسة الساسانيين العدائية تجاه الترك الغربيين ومنع الساسانيين رعاياهم من المتاجرة مع الترك الغربيين مما أدى الى تحالف هؤلاء الأخيرين مع الروم ، وجاء هذا الطريق انقاذا للروم من تدخل الفرس وتجار العرب الوسطاء على الحدود بين الامبراطوريتين ، ولكن لم يدم مفتوحا لامد طويل وذلك بسبب اضطرابات القبائل التركية التى عرقلت التجارة . وقرب نهاية القرن السابع الميلادى كانت العلاقات **البرية بين آسيا الشرقية والغربية عموما قد تقطعت ، ولا يرجع هذا الى توسع العرب كما يظن ، بل يرجع الى الاضطرابات على حدود التبت التى** استمرت حوالى ١٤٠ سنة حتى فجر القرن التاسع الميلادى ثم بدت بوادر للتعاون بين الامبراطوريتين الاسلامية والصينية لضمان الامن والسلام فى الطريق البرية ، وتتكلم التقارير الصينية عن تجديد العلاقات وتذكر

---

(١٥) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 138 : 143.
أيضا حورانى : العرب والملاحة ترجمة دكتور بكر ص ٩٧ - ٩٨ ، ١٠٩ - ١١٥ .

http://almaktabeh.com

٣ سفراء قدموا الى البلاط الامبراطورى سنة٧٩٨م وأدت الجهود من الجانبين الى زيادة النشاط التجارى بينهما كما يبدو من كتابات المسعودى وابن خرداذبة ، وان كانت الكتابات العربية عن الطرق البحرية أوفر . والحق انه ما من أسرة حكمت شمالى الصين فى ذلك الوقت ، بلغت من القوة بحيث تستطيع حفظ الطرق البرية تحت سيطرتها الكاملة . وأدى ادخال شرنقة الحرير من الصين الى خوتان Khutan فى أوائل القرن الخامس الميلادى تقريبا وانتشارها منها الى مختلف واحات التركستان الغربية واقليم طبرستان والشرق الادنى نفسه أدى هذا الى تحول نسبى فى تلك الاقاليم عن حرير الصين ، وان لم يكن انتاج وسط وغربى أسيا منه كافيا لتغطية احتياجات أسواق الشرق الآدنى ، **وكان الاتصال بين الشرق والغرب بحريا بصفة اساسية خلال سيطرة العرب على العلاقات الدولية (١٦) .**

هذا وقد كان البلاط الامبراطورى فى الصين يصر أكثر من أى بلاط شرقى على اشراف الحكومة على العلاقات التجارية الاجنبية للبلاد . وكان ممثلو الامبراطور يرفضون العلاقات التجارية مع الأجانب الا اذا كانت وفقا لشروطهم . وكان قسم من التجارة يتخذ شكل المنح كعلامة للخضوع والاعجاب من جانب ملك بعيد ، ويدفع الثمن الكامل فى صورة منح مقابلة للسفير المزعوم - التاجر فى حقيقته . ومعظم مايسمى بالسفارات الحاملة للجزية التى تتكلم عنها الحوليات الصينية فى مختلف الأزمان ، لم تكن أكثر من بعثات تجارية خاصة . ولم يعترض تجار الشرق العربى فى العصور الوسطى اعتراضا جديا على النظام الامبراطورى للمبادلات، وان كان قد بلغ من الصرامة فى بعض الاوقات حتى وصل الى درجة احتكار الدولة لكل المتاجر الهامة (١٧). والحرير أهم السلع التى كانت تحمل من الصين منذ زمن بعيد . ويذكر بلينى وبعض المصادر الصينية ان المنسوجات الصينية كان يجرى نسلها واعادة نسجها وفقا للذوق الغربى للمستهلكين ، وبلغت فنون النسج والتصميم والصباغة فى صناعة النسيج فى مدن العالم الهلنستى درجة كبيرة من الاتقان . ولما أقيم أسرى الروم فى سوس وغيرها على أثر حروب البيزنطيين والساسانيين تحركت المراكز الصناعية شرقا من

---

(١٦) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 147 : 151. ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ٥٣ .

(١٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. p. 161.

http://al-maktabeh.com

القرن الرابع الميلادى فصاعدا ، ولم تستعد مراكز الهلال الخصيب بهاءها القديم الا فى عهد الخلافة الاسلامية . وفى خلال عهد هذه الخلافة وطول العصور الوسطى أخذت صناعة الحرير والنسيج عموما تنتشر على السهول الشمالية للشرق العربى وعلى الجوانب الغربية والشمالية الغربية للهضبة الايرانية وأخذ انتاجها يتزايد حتى أمكن تصديره لأسواق أوربا وأقطار الشرق الأخرى . وكانت الحكومات الامبراطورية فى الصين جد حريصة على منع وصول سر انتاج الحرير الى العملاء الغربيين ، ولكن السر تسرب فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وتذكر الكتابات الصينية أن تسرب الحرير أتى عن طريق زواج أميرة صينية أخذت معها شرانق الحرير الى بلاد زوجها ملك خوتان ، ومنها انتشرت فى غربى التركستان والشرق الادنى ويذكر بروكوبيوس أنه فى حوالى سنة ٥٥٢ - ٤م جلب راهبان نسطوريان مقيمـان فى وتان - المعروفة بسريندیا Serindia لدى الغرب - شرانق الحرير مخبأة فى عصا الى بلاد جستنيان . وقد شجع البيزنطيون والساسانيون المتأخرون على السواء تربية دود الحرير وصناعة منسوجاته، واستمر انتشاره حتى بلغ صقلية والحوض الغربى للبحر المتوسـط . وساعد على تقدم صناعة الحرير مطالب البلاط الرسمية لدى البيزنطيين الساسانيين ثم لدى الأمويين والعباسيين ، وكان قيام دول جديدة فى أوربا وراء المتوسط ، وماتمتعت به الكنيسة من قوة فى مطالع العصور الوسطى مما زاد الطلب على الحرير للباس والزينة . ويمكن القول بأن استيراد الحرير من شمالى غربى الصين وأن أخذ يقل تدريجا خلال الطور الايرانى العربى فى العلاقات التجارية فى الشرق الأقصى ، الا أن حرير الأقاليم الساحلية للصين لم ينقطع وروده للبلدان الغربية كما يذكر الكتاب العرب . وبجانب الحرير كانت تحمل من الصين كميات يسيرة من السلع الصوفية من الحدود الشمالية الغربية للصين عبر طرق آسيا - خاصة الى التركستان ، كما كان ينقل الفراء من غربى الصين والتبت عن طريق الهند الى الشرق الأدنى ونقلت السجاجيد والأبسطة من ايران الى الصين ، كذلك كانت المنسوجات القطنية تصدر من شمالى الهند خاصة عند هبوط القوة الشرائية للمستهلكين الرومان . وكان يستورد من الصين أيضا - كما يذكر ابن خرداذبه والادريسى - الحديد ، وهناك ما يدعو الى القول بأن مصانع الحديد المشهورة فى دمشق وغيرها من مدن سوريا فى العصور الوسطى كانت تستخدم حديد الصين ، أما الصفيح فكان يحمله تجار الغرب فى العهد الرومانى الى المشرق خاصة الهند ، وبينما كانت تتدهور مناجم الامبراطورية الرومانية كانت

http://al-maktabeh.com

تزدهر مناجم الملايو الهندية Indo Malaysia حيث تجمع المصادر على أن تلك المناجم كانت مورد العالم فى ذلك الوقت . كذلك كان الشرق الرومانى يصدر الزجاج المتقن الى الشرق الأقصى خاصة الصين حيث كان يباع بأسعار غالية ، حتى أدخلت تلك الصناعة هناك قرب نهاية الربع الاول من القرن الخامس الميلادى عن طريق السوريين أو البكتريين أو الهنود ، وقد استمر تصدير الزجاج من الشرق ـ من حلب مثلا ـ بعد ذلك . وصادفت صناعة الخزف تقدما حقيقيا منذ القرن السابع الميلادى وصارت عنصرا هاما فى الصادرات ـ وقد سجل ذلك سليمان التاجر ، وتميزت على المصنوعات المماثلة فى ملبار وايران ـ كما يؤكد أبو دلف ، بينما امتد سوق الخزف الصينى من جنوب شرقى آسيا الى بلاد المغرب . أما التوابل والعطور والعقاقير كالصبر والصندل والكافور فقد كان مركزها القديم بلاد بنط حول خليج عدن ، وفى عهد الرومان استوردت هذه السلع من جنوبى بلاد العرب وساحل أثيوبيا ، ولكن عجزت هذه المنطقة أخيرا عن الوفاء باحتياجات العالم الرومانى وأخذ مركز هذه النباتات يتحرك تدريجا صوب الهند وجنوب شرقى آسيا فى الملايو الهندية Indo Malaysia وساحل ملبار وجزر الهند الشرقية ، وكانت هذه الحاصلات تصدر الى الصين والغرب أيضا وأنتجت التبت وبعض أقاليم الصين المسك والراوند .

ويورد سليمان التاجر (٨٥١م) أول ذكر للشاى ، وان كان تصديره للغرب قد تأخر الى فترة تالية . وكان يصدر اللبان من جنوبى بلاد العرب وشرقى أفريقيا الى الهند وآسيا الشرقية . ويتحدث ابن خرداذبه والمسعودى عن مصائد العنبر فى المحيط الهندى حتى فضلها الأخير على انتاج البحر المتوسط وصقلية وسواحل الأندلس . وكانت اللآلىء وسلع الزينة سلعا تجارية وواسطة للتبادل فى الوقت نفسه ، وقد اشتهرت الهند بلآلئها كما كان زمرد الصحراء الشرقية المصرية مطلوبا حتى الصين، وكانت مصائد اللآلىء والمرجان فى البحرين المتوسط والأحمر والخليج الفارسى تلعب دورا هاما فى الحياة الاقتصادية والتجارية لسكان غربى آسيا ، وقد واجهت منافسة شديدة منذ بداية العهد المسيحى من مصائد سيلان وجنوبى الهند . أما الصينيون فقد كانوا يقدرون اللآلىء الأجنبية وقد كانت جزءا هاما من وارداتهم ، كما كانوا يجلبون العاج من شرقى افريقية ، وهكذا كانت الصين طوال الطور الأغريقى الرومانى والطور الايرانى العربى من تاريخ العلاقات التجارية أحد الأسواق الهامة لسلع الزينة ، وكان للصينين وضعهم الخاص بالنسبة للرق ، وقد احتكوا فى



http://al-maktabeh.com

موانيهم بتجار الرقيق من الملايو الهندية وجنوب غربى آسيا وشرقى أفريقيا ، وانتشرت هذه التجارة فى العهود الصينية التى اهتمت بالاتصالات البحرية • وقد كانت التجارة بين شرقى آسيا وغربيها كبيرة بالرغم من مصاعب النقل وسائر العقبات الفنية فى وجه النشاط التجارى مثل أساليب المبادلات وتحديد عدد مستهلكى السلع الرئيسية ، وتعددت السلع فى هذه التجارة بتزايد احتياجات الأفراد والمجتمعات نتيجة للتمدن • وكان الميزان التجارى بالنسبة للصين فى صالحها عموما ، الا أن المخازن الامبراطورية اكتظت أحيانا باللآلىء وغيرها من السلع الثمينة التى جلبها معهم التجار الغربيون مقابل الحرير والخزف وسائر السلع الصينية، مما أدى الى كساد فى أسوق الشرق الأقصى • وفى الوقت نفسه كان الميزان الظاهرى لبلاد الشرق عامة فى الجانب المقابل ، ولكن يلاحظ هنا أن جزءا كبيرا من السلع الشرقية التى كانت تصل لآسيا الغربية كان يعاد تصديرها الى الغرب ، بينما كانت الأرباح الكبيرة لتجار الشرق كوسطاء وناقلين هى سبب الزيادة فى جزء كبير من الواردات (١٨) •

## الطرق التجارية ودور العرب فيها قبل الاسلام

ويهمنا من تتبع طرق التجارة التى كانت تسلكها التجارة الشرقية، تحديد دور شمالى الشام والجزيرة ودور العرب قبل الاسلام بالنسبة لهذه التجارة الهامة •

**( أ ) الطرق البرية :**

كان من الممكن لهذه التجارة أن تتجه من التركستان الى بحر قزوين ثم تسلك بعد ذلك أحد سبيلين :

١ ـ شمالا الى الفلجا والبحر الاسود عند خرسون Cherson

٢ ـ جنوبا خلال شمالى فارس الى نصيبين على حدود امبراطورية الروم وخلال ارمينية الى طرابزون •

**وطريق الشمال من بحر قزوين الى اراضى القرغيز والصغد** لم يسمع عنه قبل أواسط القرن السادس الميلادى ، عندما حاول أباطرة بيزنطة

---

(١٨) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 191:215.

http://al-maktabeh.com

تأمين هذا الطريق بالاتفاق مع زعماء الترك الغربيين لتجنب المرور في الاراضي الايرانية ٠

**أما طريق الجنوب عبر ارمينية** فكان يحتاج الى الاتفاق مع أقاليم شمالي ارمينية وهذا ما لجأ اليه الروم للسبب نفسه٠ وكان يمكن للتجارة الشرقية اذا عبرت الاراضي الايرانية أن تواصل سيرها عبر الطريق الامبراطوري القديم ، اذ يلتقي الطريقان الفرعيان من اكباتانا Ecbatana وزيجما Zeugma بالفرات عند ادسا ( الرها ، اورفا ) شمالي الهلال الخصيب ، ثم يمتد الطريق الى افسوس على بحر ايجه ٠

**وثمة طريق يخترق الاراضي الايرانية** يجتاز الهند وافغانستان ووسط فارس الى نصيبين ومنها الى سوريا ٠

**أما الطريق الجنوبي من حوض الاندس** Indus **الادنى وسهول بلوخستان الى الاراضي القفراء جنوبي ايران** حتى برسبوليس Persepolis وسوسيانا Susiana والذي يصل أدنى بلاد النهرين فمراكزه التجارية قليلة وهو أقل الطرق أهمية ٠ وكان للحركة التجارية النشطة خلال هذه الطرق آثارها في منطقة الشام والفرات ، التي تتوسط الشرق والغرب فتدفقت السلع على دمشق والموانى البحرية المتقاربة : طرابلس وبيروت وصور وعكا ، وكان الفرات صالحا للملاحة من الخليج الفارسي حتى قرب البحر المتوسط ، وكانت كالينيكوم Callinicum (الرقة العربية فيما بعد) مركز الروم لشراء الحرير من الفرس ، وقد واصلت أداء دورها التجارى فى العهد الاسلامى لا فى جهات الفرات وحدها بل فى الجهات الشمالية الشرقية مع نصيبين والموصل ، وفى الجهات الجنوبية الغربية مع دمشق٠ وكانت بالس على مسيرة يومين من الرقة ، ويصفها الاصطخرى بانها فرضة أهل الشام حيث كان محط رحال التجارة الذاهبة الى الشرق والآتية منه . وكانت حلب على مسيرة يومين غربى بالس — مركزا تجاريا هاما فى شمالى الشام ، يقابل مركز دمشق فى الوسط . وتواصل بعض المتاجر طريقها الى انطاكية ومنها الى البحر ٠ وقد بلغت أهمية الشريان التجاري بين حلب وانطاكية ان اتفق البيزنطيون والحمدانيون على استمراره آمنا بعد سقوط انطاكية فى أيدى الروم ٠ ونحن نجد فى قائمة عشور التجارة فى اتفاق الجانبين أسماء هذه السلع : الذهب والفضة والحرير الرومى والحرير الخام والاحجار الثمينة واللالىء والديباج والاقمشة والماشية ٠ كذلك كانت المتاجر الشرقية تصل الى الغرب عن طريق طرابزون ويشير الى أهمية دورها فى هذا الصدد المسعودى والاصطخرى ٠

http://al-maktabeh.com

(ب) الطرق البحرية :

كان هناك طريق الخليج الفارسي ومنه الى سوريا ، وطريق البحر الاحمر فمصر ، ومن ميزة الطريق الآخر انه يتوقى المرور فى الاراضى الفارسية • وكانت فارس خطرا يهدد التجارة الشرقية بالنسبة للروم ، فقد وضعت مكوسا عالية ، وفى أوقات الحرب قطعت الاتصال تماما • ويمكن تلخيص اتجاهات الحرب الفارسية الرومية فى محاولة فارس مد ذراعيها للوصول للبحرين الاسود والابيض للسيطرة تماما على التجارة الشرقية استيرادا وتصديرا ، ومحاولة الروم تحطيم الاقتصاد الفارسى بالوصول الى مناطق استيراد التجارة الشرقية • وتفسر هذه المحالاوت كثيرا من مظاهر العداء بين المدائن والقسطنطينية حتى سنة ٦٢٩م مما كان يؤدى الى تعطل مصانع الحرير عند الروم وان لم يصل الى حد الاضرار بميزانهم التجارى •

وقد حاولت الدبلوماسية البيزنطية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين تأمين الطريقين البعيدين عن النفوذ الفارسى ، فسعت لتأمين **طريق الشمال البرى** بالتفاهم مع ممالك الهون والترك فى الاستبس ــ فى الوقت الذى عملت فيه الجيوش فى شبه جزيرة القرم وارمينية والقوقاز ودعم البيزنطيون سلطانهم فى ميناء خرسون ضد ضغط الترك سنة ٥٨١م، **أما طريق الجنوب البحرى فى البحر الاحمر** فقد سعى البيزنطيون الى الاتفاق مع الاحباش فى اكسوم مؤملين أن ينمى الاحباش التجارة مابين سيلان والبحر الاحمر للاضرار بالساسانين ولفائدة البيزنطيين ، وقد كان البيزنطيون الى حد كبير سبب اتجاه الحبشة الى محاولات الفتح فى الساحل العربى للبحر الاحمر (١٩) •

**وقد ذكرت بعض مدن الحدود فى المعاهدات بين فارس والروم ليمر بها الحرير الخام** دون غيرها : مثل كالينيكوم Callinicum فى جنوب خسروان ، ونصيبين فى الجزيرة فى منتصف خط الحدود ، وارتكستاتا Artaxata ودوفن Dovin فى الشمال عند ارمينية • وكانت نصيبين وحدها هى التى يصرح فيها لتجار الرومان بالتجارة قبل المعاهدة التى عقدها امبراطور الروم جوفيان Jovian (٣٦٣ ــ ٤م) وقد رفض نرسى

---

(١٩) Huzayyin : Arabia and the Far East pp. 106-7 Runciman : Byz. Civ p. 131.
Heyd. Hist. Du Commerce du Levant Vol. I. pp. 40:45.
أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٦ ــ ١٧ ، ٥١ : ٣ •

http://al-maktabeh.com

مثل هذا الشرط من دقلديانوس سنة ٢٩٨م ، وكان كل من الفرس والروم يخشون التجسس عن طريق التجارة ٠ وفي سنة ٤٠٨ ـ ٩م صدر منشور امبراطوری لتوجيه حكام مناطق الحدود ، ومنه نعلم اتفاق الدولتين على قصر التبادل بين تجارهما على أنواع معينة ٠ وكانت معظم السلع الشرقية قبل القرن السادس الميلادى تسلك الطريق المتوسط عبر الاراضى الساسانية ، على حين كان ينقل بعضها الآخر بحرا الى الخليج الفارسى ثم عن طريق بين النهرين الى الحدود السورية ، وسلك جانب ثالث طريقا برية من التركستان وشمالى ايران الى حدود ارمينية وسوريا٠

وغدت مناطق الامبراطورية الرومانية الاقتصادية الكبرى نهاية لطريق هام من طرق تجارة الشرق الاقصى : فكانت مصر نهاية الطريق البحر الاحمر ، وسوريا نهاية لطريق الخليج الفارسى والطريق البرى عبر فارس ، والقسطنطينية نهاية لطريق ارمينية والبحر الاسود ٠ وشاركت كل منطقة فى الرخاء الناتج عن اعادة تصدير البضائع المارة بها ، وكانت مدن القرم مثل خرسون والبوسفور ذات أهمية كبيرة ورخاء باعتبارها مراكز لتجارة الفراء الروسى ونهايات لطرق الحرير الآتية من الشمال ٠ **واستمر قيام المدن على الحدود بالتحكم فى الوارد والصادر ، وظلت دارا وارتكسانا ونصيبين وكالينيكوم قوية فى عصر جستنيان** ، واعترف بهذا النظام فى المعاهدة التجارية مع الفرس سنة ٥٦٢م ٠ ويبدو ان التحكم الاقتصادى فى شئون النقل والتجارة الخارجية شغل الاباطرة البيزنطيين منذ عهد جستنيان وحلفائه أكثر مما شغل اسلافهم من الرومان(٢٠) ٠

ومن هنا يتبين أهمية الدور الذى لعبته مناطق الحدود فى الجزيرة وارمينية بين فارس والروم ، ولا بد أن تكون الرها بحكم موقعها قد شاركت فى تبادل التجارة عبر الحدود ٠ ومنذ القرن الخامس الميلادى قصرت الدولة البيزنطية السماح بشراء الحرير على وكلاء امبراطوريين على الحدود لكيلا يكون لها منافس ٠

وتاجرت موانى القرم مع الهون والآفار وجنوبى روسيا ، وفى خلال القرن السادس الميلادى ازدهرت التجارة الشرقية وظل الحرير ينقل برا عبر الاراضى الفارسية الى مراكز المكوس ثم يصنع فى مصانع القسطنطينية

---

(٢٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٧ ، ٥٣ ـ ٤ ، ٦٤ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ٠ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ ، كريستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين ٠ ترجمة دكتور الخشاب ص ١١٥ ـ ٦ ٠

http://almaktabeh.com

أو صور أو بيروت ولكن بعض الحرير كان يأتى عن طريق البحر • وقد تحدث كوزماس Cosmas Indicopleustes عن تجاربه الخاصة كتاجر فأبرز أهمية سيلان فى القرن السادس الميلادى كملتقى تجار الشرقين الاقصى والادنى فهناك كان تجار من الهند والحبشة يبادلون الحرير والمر وخشب الصندل الوارد من الصين بالزجاج والاقمشة المطرزة من سوريا . وكان تجار الحبشة يجلبون هذه المنتجات الى ادولة على البحر الاحمر عاصمة اكسوم Axum الحبشية وكان للتجار الاحباش جولاتهم التجارية داخل افريقية . وتأتى السفن الرومانية الى ادولة فتحمل التجارة الشرقية الى جوتاب وهى جزيرة تبعد عن سينا كانت تصلها أيضا سفن البهار من موانىء اليمن على ساحل البحر الاحمر الشرقى ، فاذا دفعت المكوس فى محطة الجمارك الامبراطورية فى جوتاب تقدمت مع أحد خليجى البحر الاحمر الى ايلات ( ايلة ـ العقبة ) أو الخليج الآخر الى القلزم ومنها الى الاسكندرية .

وقد أدت الحروب بين الروم والفرس زمن جستنيان الى ارتفاع أسعار الحرير الخام، فلجأ الامبراطور الى تحديد سعره فرفض تجار الفرس البيع، وجاء انفراج الأزمة بتهريب شرانق الحرير الى أراضى امبراطورية الروم زراعة أشجار التوت فى سوريا • وقد حاول جستين الثانى خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى فتح طريق التجارة الشمالى ، ففاوض خان الأتراك ولكن شغلته حروب الغرب (٢١) •

**وكانت قوافل العرب البرية تشارك الطريق البحرى نشاطه فى نقل التجارة الشرقية** قبل الاسلام ، فكانت هناك رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام •ويرى أن مغامرا فارسيا يدعى Amarkesos آثر العيش فى اقليم رومانى فى عهد الامبراطور ليو الاول ( ٤٥٧ ـ ٤٧٤م ) ، وأقام فى الولاية العربية Arabia وأخذ يوسع نفوذه ويغير على عرب المنطقة • واستولى على جوتاب التى كانت تابعة للروم وكانت مركزا تجاريا له قيمته وبها حامية رومانية ، وربما سكنها بعض التجار ، وكانت تجمع المكوس ، ويعطى عنها وثائق تبرز فى الموانى الرومانية والا دفعت المكوس من جديد • وقد قام هذا المغامر بطرد موظفى المكوس الروم، وأخذ يقتضى هو المكوس من السفن المارة ، وبسط نفوذه على الجزر والسواحل شمالى البحر الاحمر وعلى الطريق التجارى الذى يربط سوريا

---

(٢١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧١ : ٦
Runcinan : Byz. Civl. pp. 131-2.

http://al-maktabeh.com

ببلاد الغرب الجنوبية ، وأراد بعد اتساع نفوذه أن يصير فيلارخا على العرب في ولاية بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea فأرسل اسقف العرب المسيحيين الساكنين في الخيام Saracens المسمى Peter للتفاوض في ذلك ثم زار هو العاصمة حيث استقبله ليو بنفسه وأعد له برنامج حافل خلال زيارته وأعطيت له الهدايا واغدقت عليه الامتيازات ، ونقلت اليه ملكية جوتاب واعترف بحكم امور كيزوس لقرى مجاورة على الرغم من أن معاهده الصلح مع الفرس نصت على عدم السماح لأى لاجىء من الاقليم الفارسي بالاقامة في الدولة الرومانية ولم تعد جوتاب الى حظيرة الامبراطورية الا في عهد انستاسيوس . ويرى موزيل أن هذا المغامر الفارسي هو عربي انتقل من منطقة النفوذ الفارسي الى منطقة النفوذ الروماني « وأغلب الظن أن الاسم الذى عرفت به عند الرومان Nakalians كان يدل على معنى الانتقال ، وأن الذى اطلقه على القبيلة هم سكان المقاطعة الرومانية من العرب القاطنين فوصفوا القبيلة الطارئة عليهم بنعت يحمل معنى الانتقال والبداوة – أى ناقلة (٢٢) .

وكان العرب يسكنون على ساحل البحر الاحمر، الذى جرى الصراع بين الروم والفرس على السيطرة عليه والتحكم في تجارته ، وكانت بلاد اليمن بوابة انثالت منها قوتا بيزنطة وفارس الى جنوب بلاد العرب ، وتزاحمتا على السيطرة التجارية في تلك البلاد . ذلك أن صحراء الشام وما والاها جنوبا وقفت حائلا دون هاتين القوتين العالميتين اذ ذاك من الامتداد الى بلاد العرب من ناحية الشمال ، ومن ثم تسربت حمى التنافس التجارى بين القوتين العظيمتين اللتين احاطتا ببلاد العرب شرقا وشمالا عبر اليمن ، وتمكنت فارس من اقصاء الشبح البيزنطي وحلفائه من الاحباش عن تلك البوابة وغدت الرقيب المهيمن عليها حتى اطاح بها الاسلام (٢٣) » .

لقد كانت اليمن « بحكم موقعها الممتاز نقطة تبادل تجارى بين الحضارات العريقة التى نشأت في وادى النيل وفي وادى دجلة والفرات وفي حوض البحر المتوسط من جهة وبين الحضارات التى عاصرتها في أوقات مختلفة في الهند وفي جنوب شرقي آسيا وفي شرقي افريقية من جهة أخرى . ونظرا الى صعوبة الملاحة في البحر الاحمر ، بالاضافة الى

---

(٢٢) Bury : Hist. of Later Rom. Emp. Vol. II. pp. 7-8. موسل : شمال الحجاز . ترجمة الدكتور الحسيني ص ١١٨ : ١٢١ .

(٢٣) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٦ – ١٧ .

http://almaktabeh.com

سيطرة اليمن على مدخله الجنوبى والمام اليمنيين بالملاحة فى المحيط الهندى وفى البحار المحيطة ببلادهم ، **استطاعت الدول اليمنية القديمة أن تحتكر التبادل التجارى بين الشرق والغرب** وأن توجهه لمصلحتهـا على طول طرق القوافل فى شبه جزيرة العرب » وكانت سلع الشرق تنتقـل الى حوض البحر المتوسـط وبالعـكس خلال ٣ طرق للقوافل : الاول من الساحل الجنوبى على ظهور الابل غربا حتى صنعاء ثم شمالا بمحاذاة ساحل البحر الاحمر مخترقة تهامة والحجاز ومارة بمكة والمدينة الى العلا ثم **بطرة حيث كانت تخرج طرق فرعية الى تدمر والى الشام** والى مصر ـ وهذا أهم طرق القوافل العربية ، والطريق الثانى من أقصى شـمالى بلاد اليمن على طول وادى الدواسر الى وسـط بلاد العرب ومن هنـاك يسير **طريق الى جنوب العراق**، والطريق الثالث من وسط شبه الجزيرة **الى جنوبى شرقى سورية** مارا بواحات الجوف فى الشمال . وكانت هذه الطرق تحت رحمة العرب وحدهم • واستفادت اليمن من ميزاتها التجارية ، فارتقت حضـــارتها وانتشرت بانتشار المحطات والمستعمرات اليمنية على طول الطرق التجارية، ومن هنا وجدت صـلات بين الخط المسـند اليمنى وبين الخـط الصفوى بحوران واللحيانى بالعلا والحجر والثمودى . وخلال الالف الاولى قبل الميلاد كان الجزء الاكبر من التجـارة العالمية فى بلاد العرب واقعـا فى يد السبئيين والمعينيين المسيطرين على الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، وكانت تقيم فى كل واحة مهمة على طريق الطريق التجارى جالية من عرب الجنوب ومعها مقيم منها مهمته تنظيم الاتصال بالاقليم ورؤسائه حتى لا يسيئوا لمصالح سيده السبىء او المعينى الذى قد يكون على راس المملكة الجنوبية السبئية او المعينية تبعا لاختلاف العهود التاريخية • وقد كان حكام سوريا وملوك آشور البعيدون عن طريق التجـارة الرئيسية لا يهتمون بالمفاوضات مع الملوك المحليين للاقليم واشرافه ، بل يتجهون الى المقيم الجنوبى كما لو كان هو الملك الجنوبى ، وهذا يفسر اشارات الوثائق السريانية ، والعبرية عن السبئيين كما لو كانوا يقيمون فى الجنـوب الشرقى للبحر الميت • وطريق التجارة القديم الذى يسـير من أيلة الى الشمال عن طريق معان يمر على الحـدود بين البدو والحضر ، وتبعـا للمصادر الاشورية والعبرية فان البدو كانوا يسمون عروبى او عرب وان ارضهم كانت تحمل نفس الاسم ، فيجب ان نفرض أن هذا الطريق كان يحمل اسم ( الطريق العربى ) لانه كان يمر على حافة الحـدود الغربية لارض عروبى أو عريبى او بلاد العرب • وقد اتصـل بنو اسرائيل بهذا الطريق عند نقطة قريبة نوعا من محطـة القويرة الحالية فداروا الى

http://al-maktabeh.com

الشمال ، وسلكوا خلال جبل سعير ولكن كانوا على غاية من الحذر من قبائل البادية التى تقيم على حافته الشرقية ، اما أهل سعير فلم يعترضوا طريقهم . ويفهم من اشارات الكتاب المقدس التى تهدد ملوك البلاد العربية ، ان المقصود هم ملوك الواحات العربية ديدان وتيماء وبوز — وديدان هى مركز العرب اللحيانيين ، ثم اخذت تحل محلها الحجر Hagart 'Agra 'Hagra فى أوائل القرن الثانى الميلادى وتقع شمالى ديدان وصارت التجارة مركزة فيها . ويشير بروكوبيوس الى وجود اليهود فى جزيرة جوتاب ، وفى ذلك العهد كانت توجد حى أو خطة لليهود تختلف فى المساحة باختلاف المدن والقرى فى المقاطعة العربية . وقد حل اليهود محل الفينيقيين فى النشاط التجارى ، خاصة بعد اضطهاد الرومان لهم سنة ٧٠ م ، فاتجهوا نحو الطرق التجارية العالمية واستقروا على طولها — ومن اهمها طرق القوافل العربية وافرعه المختلفة . واستقروا عند الطرف الشمالى لطريق القوافل فى بطره ( البتراء ) ، كما استقروا فى الواحات على طول طريق القوافل فى تيماء والعلا ويثرب، واتجهوا نحو اليمن وأكسوم فى الحبشة وعظم شأنهم فى الواحات الواقعة على طول الحجاز كما كان شأنهم فى يثرب قبل الاسلام (٢٤) .

وقد حاول الرومان الاستيلاء على طريق القوافل العربى فى حملة اليوس جالوس سنة ٢٤ ق ٠ م ، وادى فشلهم الى انتعاش بلاد اليمن وبسطت سبأ نفوذها اواخر القرن الثالث الميلادى على اليمن ، وكان شمريهرعش ملك سبأ فى أواخر القرن الثالث الميلادى واوائل القرن الرابع الميلادى محاربا نشيطا غزا حضرموت ومد نفوذ سبأ للموانى فى شرق الساحل الجنوبى وبسط سلطانه فوق المرتفعات الجنوبية الغربية من اليمن ، فأشرف على تجارة البر والبحر . ولكن ضعفت سبأ نتيجة للحروب الداخلية ، ثم احتلال الاحباش لها سنتى ٣٤٥ ، ٣٧٨ م وصراع الروم والفرس على السيطرة على التجارة العربية . وقد كانت حملة امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالى للفرس على نجران التى اشار اليها نقش النمارة سنة ٣٢٨ م فصلا من الحروب الرومانية الفارسية ، وكانت محاولة للسيطرة على القبائل العربية بين حدود الهلال الخصيب والحدود الشمالية لليمن ، والسيطرة على طرق القوافل العربية والقضاء على

---

(٢٤) دكتور حسن الباشا — طرق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام — المجلة ع ٤ ابريل سنة ١٩٥٧ ، موسل : شمال الحجاز ترجمة الدكتور الحسينى ص ١ — ٢ ، ٢٣ ، ٦٠ ، ١٠٧ ، ١٢٢ .

http://almaktabeh.com

الاحتكار اليمنى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب • ولكن فشل هذا الهجوم واعانت على ذلك قبيلة كندة ، التى ظلت منذ تأسيسها فى نجد مخلصة لملوك اليمن • وبعد قرن قام الملك اليمنى ابو كرب اسعد او تبع ( حوالى ٣٨٥ : ٤٢٠ م ) مع ابنه بهجوم مضاد نحو الشمال حتى استولى على الحيرة وتوغل فى الأراضى الفارسية ، منتهزا فرصة الاضطراب الذى اعقب وفاة يزدجرد الاول سنة ٤٣٠ م وانشغال الفرس بحرب الرومان او قتال الهون • وتفرغ التبابعة لاحياء طرق القوافل العربية والسيطرة على التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، بينما انشغل الفرس والروم بهجمات الهون والجرمان عن الصراع على التجارة العالمية وطرق القوافل العربية مؤقتا ، ولم تكن الحبشة وقتها منافسة خطيرة لليمن لعدم توحيدها فى دولة قوية • وبعد ان تمكن الساسانيون والبيزنطيون من صد الخطر البربرى ، تفرغتا لصراعهما ، فتعرضت اليمن للمطامع التجارية الاحتكارية منهما ، كما ظهرت مملكة اكسوم كدولة موحدة قوية فى الحبشة •

ويستشف من النقوش اليمنية القديمة ان التبابعة ساهموا فى الحروب الفارسية البيزنطية من ٥٠٦ الى ٥٢٦ م فى جانب البيزنطيين غالبا ومع ذلك يبدو أن اتجاه بيزنطة الى تشجيع المسيحية فى نجران أثار ذا نواس اخر التبابعة فاعتنق اليهودية وتحالف مع المنذر الثالث ملك الحيرة ـ وادى هذا السلوك العدائى الى **الغزو الحبشى البيزنطى لليمن سنة ٥٢٢م وسقوط التبابعة واحتلال الاحباش لليمن • وكان من المتعذر على الاحباش الاشراف على طرق القوافل الخطرة ، ففضلوا طريق البحر الاحمر • كما كانت دولتا النبط وتدمر قد سقطتا على التوالى بايدى الروم ، وقامت دولتا المناذرة والغساسنة اللتان اصطنعتهما الفرس والروم. وقد ارتبطت هذه الدويلات العربية بتجارة المرور ، حتى ارتأى حتى** Hitti **« أن شان هذه الدويلات العربية الشمالية شان دول الجنوب تستمد قوتها فى الغالب من التجارة ، ولم تكن بحال من الاحوال دولا حربية لاعند نشأتها ولا عند تطورها » • غير أن هذا القول يصعب اطلاقه بالنسبة للغساسنة واللخميين بصفة خاصة ـ مع التسليم بدور طرق التجارة العالمية فى قيام هذه الدويلات** ، والدكتور حتى يقول بالنسبة للبتراء نفسها انها « وصلت الى أقصى درجات الغنى والرخاء فى القرن الاول الميلادى تحت رعاية الرومان الذين كانوا يتخذون منها مملكة حاجزة تقيهم شر بارثيا » • ويقول عن تدمر كذلك انها « كانت تقع بين الامبراطوريتين المتنافستين ـ بارثيا وروما فكانت تعتمد فى سلامتها على حفظ التوازن بين الدولتين وتستفيد من حيدتها » على أن اثر التجارة بارز

http://al-maktabeh.com

فى قيام هذه الدويلات وقد يكون سابقا على العوامل السياسية ، والدكتور حتى يشير الى اجتماع الظروف الاقتصادية والسياسية فى نشأة تدمر « وادى الاتجاه الجديد فى الامبراطوريات العالمية والتحول فى طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم .. واستفاد تجارها من وضعها الفريد **كمحطة رئيسية لنزول القوافل** عند نقطة التقاء الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، واستقل رجال السياسة بذكاء **موقعها الاستراتيجى بين دولتين كبيرتين متنافستين**».

**وساعدت الظروف مكة ـ خاصة موقعها ـ كى تخلف اليمن** ، وغدت فى القرن السادس الميلادى مدينة دولية يعيش فيها بجانب أهلها من قريش عشائر عربية أخرى وجنسيات اجنبية وديانات مختلفة وبعض هؤلاء تجار وبعضهم رقيق. وذكر الاخباريون ان هاشم بن عبدمناف الذى ولد فى العقد السابع من القرن الخامس الميلادى هو اول من قام برحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام . وصارت مكة ـ والحجاز عامة ـ مركز التبادل التجارى والنقدى وعمليات التسليف والرهن والتأمين والتصدير والاستيراد والاشتراك فى المشروعات التجارية المختلفة وكان بها سفراء يحافظون على مصالح دولهم التجارية ، كما عقدت قريش الاحلاف والمعاهدات التجارية لتؤمن قوافلها التجارية فى بلاد العرب . فعقد هاشم مع بيزنطة والغساسنة معاهدة للاتجار فى الشام ، وعقد عبد شمس اتفاقا تجاريا مع نجاشى الحبشة ، وسمح الفرس لنوفل والمطلب بالاتجار مع العراق وفارس « فكان العرب ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام اول يوم من ربيع الاول فيقيمون اسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء وكان يعشوهم فيها اكيدر دومه ـ وربما غلب على السوق كله فيعشوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر ثم ينقلون الى سوق هجر ـ قاله القلقشندى ... وروى القالى ان قريشا كانت تجارا وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ـ اى تقدم عليهم الاعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له : ان قومى تجار العرب فان رأيت ان تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من ادم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو ارخص عليكم ، فكتب له كتاب امان لمن يقدم منهم ـ فاقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام اخذ من اشرافهم ايلافا . **والايلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم من غير**

http://al-maktabeh.com

حلف ـ انما هو امان الطريق ، وعلى أن قريشا تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس اموالهم وربحهم ، فاصلح هاشم بذلك الايلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء اتوا به بركة . فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ، يوفيهم ايلافهم الذى اخذه لهم من العرب حتى اوردهم الشام واحلهم قراها ، فاتسعت قريش فى التجارة الجاهلية . وهاشم هذا هو جد الرسول ، مات بغزة فنسبت اليه فقيل لها غزة هاشم ، لان الروم كانوا يقيمون لهم سوقا فى غزة فى موسم معلوم وكانت قريش فى الجاهلية تحضره وتمتار منه . وكانت لهاشم رحلتان : رحلة فى الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة . ورحلة فى الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وقال الثعالبى : وكان يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر ... **ومعنى الايلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح يجعل لهم متاعا مع متاعه ويسوق اليهم ابلا مع ابله ، ليكفيهم مئونة الاسفار ويكفى قريشا مئونة الاعداء ... وذكر اللغويون من جملة التخريجات فى اسم قريش ، انها سميت بذلك لتجرها وكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق** ، وقيل لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع وضرع ـ من قولهم : فلان يتقرش المال أى يجمعه .. »

وهكذا ورثت مكة الاشراف على طرق القوافل العربية من اليمن ، وورثت أيضا صراع الروم والفرس على هذه الطرق . فجهز ابرهة حمله كبيرة الى مكة سنة ٥٧٠ م فشلت فى غرضها ، ويميل بعض العلماء الى اعتبارها فصلا من فصول الحروب البيزنطية الفارسية بين سنة ٥٧١ ، سنة ٥٨٠ م وكان ابرهة يرمى من ورائها الى السيطرة على وسط بلاد العرب وشمالها فتتصل بحدود حليفته الدولة البيزنطية فى الشام ويتسنى لبيزنطة خنق فارس ، وان كانت هى فى الحقيقة فصلا من المنافسة حول احتكار التبادل التجارى والسيطرة على طرق القوافل . ولا ينال من هذه الحقيقة ذلك الطابع الدينى المستفاد من الروايات القائلة بمحاولة ابرهة صرف الحج عن الكعبة الى كنيسة القليس التى ابتناها بصنعاء . وقد ازداد نفوذ مكة وقريش على اثر فشل حملة ابرهة . ولما سيطر الفرس على اليمن سنة ٥٧٥ م بالاضافة الى سيطرتهم فى الحيرة فى الشمال ، جاء يوم الفجار الثانى الذى نهضت فيه قريش تنتصر لمن قتل شخصا اضطلع بحماية قافلة تجارية للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان مقتله بسبب المنافسة على نقل التجارة . غير أن سيطرة مكة تعرضت للخطر لانتشار

http://al-maktabeh.com

الترف وبدت بوادر التحلل الاجتماعى وافتقاد النظام الحكومى فى الداخل (٢٥) ٠

وكان جل الاهتمام بشئون التجارة والمال عند قريش قبل الاسلام فى **بنى عبد الدار** ، الذين تركوا لبنى عبد المطلب الجاه المعنوى بقيامهم بشئون الكعبة والحجاج ٠ ولقد كانت قريش كلها تسهم فى تجارة الشام ، ولكن بنى أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجة بالمتاجر ـ فكان رؤساء قافلة بدر كلهم أمويين ، وهكذا كانت تجارة قريش مع الشام اموية ، واهتم بنوعبد شمس بالتجارة والسفر اهتماما فسر دوافعه ابن هشام بقوله : ان عبد شمس كان رجلا سفارا قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد وكان هاشم موسرا » ٠ ويقال ان عثمان بن عفان سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب فيلا رخوس ، كما سأل قيصر أبا سفيان عن النبى ، وكان لابى سفيان ضيعة فى البلقاء ٠ واتبع بنو أمية فى قيادتهم لقوافل التجارة الطريق التجارى القديم ، وهو يؤدى بعد اجتياز بلاد الحجاز الى الاراضى البيزنطية عند ايلة (العقبة) التى ضمها الرومان اليهم سنة ١٠٩م وعندها يبدأ طريق تراجان بين البحر الاحمر وفلسطين وينتهى عند غزة ، ويذهب فرع آخر منها الى بصرى التى كانت عاصمة الولاية العربية بالشام وسوقا كبيرا وفدت اليه القوافل التجارية قبل الاسلام ٠ وكانت القوافل تجد كل معونة من السلطات البيزنطية عند دخولها ايلة ـ مقر الفيلق العاشر الذى احتل جزءا من جزيرة جوتاب لاكمال الرقابة على تجارة البحر ٠ وكان التجار الامويون يحرصون على الحصول على الدينار البيزنطى لتصريف شئونهم التجارية ، وقد لقوا كل ترحيب فى المدن التى سادها نفوذ الغساسنة ٠ وكانت قوافل مكة تحصل من الشام على المنسوجات القطنية والحريرية والاقمشة المصبغة ذات اللون الارجوانى ، كما كانت تجلب من بصرى الاسلحة والحبوب والزيت (٢٦) ٠

---

(٢٥) دكتور حسن باشا : طريق التجارة العربية من عهد سبأ الى صدر الاسلام ـ المجلة ع ٤ ابريل سنة ١٩٥٧ ، أيضا دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ١٩ : ٢٣ ، حتى تاريخ العرب ترجمة نافع ج ١ ص ٥٩ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، تاريخ سوريا ج.١ ترجمة حداد ورافق ص ٤١٧ وما بعدها ، كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٢٥٨ : ٢٦٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١ ص ٤١٠ ـ ٢١١ حـ ٤ ص ٢٦٣ ـ ٤ ٠

(٢٦) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ ، دكتور العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٣ : ٣٢ ٠

http://al-maktabeh.com

على أن نشاط العرب البحرى قبل الاسلام كان محدودا ، واذا كانت لقريش صلة بالحبشة عبر البحر الاحمر بدليل هجرة اوائل المسلمين اليها اليها حوالى سنة ٦١٥ م الا انها كما يبدو لم تكن تملك سفنا خاصة واذا كان للبحرين وعمان ملاحوهما على الســـاحل الشرقى والجنوبى الشرقى حيث انطلقت غارات العرب البحرية بعد الاسلام مباشرة الا انه كان هناك عنصر فارسى قوى فى تلك السواحل بعد تبعية المنطقة للساسانيين ، وربما كان المشتغلون بالملاحة فى أيلة مزيجا من الفرس والعرب . وهكذا سار اتجاه الفتح الاسلامى الى الشمال تجاه الشام ، ولم يعبر البحر الاحمر الى الحبشة وافريقية (٢٧) .

كانت اهم مراكز صناعة الحرير عند الروم فى الشام ـ خاصة فى صور وبيروت . **وكانت الشـــام عمـوما من اكـثر اقاليم الامبراطورية ازدهارا** . ويقول بروكوبيوس عن انطاكية عاصمة الاقليم انها كانت اولى مدن الشرق الرومانية نظرا لثرائها ومساحتها وسكانها وجمالها وآثارها ويعجب القديس انطونيين الشهيد S. Antonin Martyr لابهة انطاكية وبهاء أفامية وبيروت وغزة . ولم تستمر الحالة التى نشأت عن تحديد جستنيان لاسعار الحرير والتى ضاق بهـا التجار والصناع ، اذ ادخل الحرير الى أراضى الدولة بعد ذلك وبدأت زراعة اشجار التوت فى نواحى بيروت فى القرن الأخير من الحكم البيزنطى للشام . وكان لاهل الشـام نشاطهم التجارى ايضا، فقد حملوا معهم الحرير الى شواطىء البحر المتوسط ليتعاملوا فى منتجاته متحملين فى ذلك صعابا جمة . وحين استقر الامر للجرمان فى اوربا ـ الغربية زاد نشاط السوريين التجـــارى ، واستقر بعضهم هناك. ولم يكن للروم أنفسهم مثل نشاط السوريين فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب . وكان موقع دمشق التجارى ممتازا ، فهى مرحلة هامة فى طرق القوافل بين آسيا الصغرى أو اقاليم الفرات وبين بلاد العرب ومصر ـ ونهر الفرات ينتهى الى الخليج الفارسى الذى اطلق عليه احد جغرافيى القرن العاشر اسم بحر الصـــين لانه نقطة انطلاق السفن نحو الشرق الاقصى . وكان البيزنطيون قبل الاسلام سادة البحر المتوسط وكانت امبراطوريتهم تضم الســواحل التى تنتهى اليها الطرق التجارية الاسيوية ، ففى حوزتهم مصر حيث تجتمع شـواطىء البحرين الاحمر والابيض ، والشام حيث تنحدر المتاجر القادمة عبر الخليج الفارسى أو خليج العقبة او الطرق البرية من وسط آسيا كما كان للروم نفوذهم

(٢٧) حورانى : العرب والملاحة في المحيط الهندى ـ ترجمة د. بكر ص ١٥٠ : ٨ .

http://al-maktabeh.com

على شواطئ البحر الاسود حيث المراكز التجارية التالية فى الاهمية . حتى كان ظهور القوة العربية على مسرح الاحداث بعد الاسلام ، وما ترتب عليه من آثار عميقة فى شتى الاتجاهات ، ومن بينها الحياة التجارية والاقتصادية (٢٨) .

**وكان الشام يعتمد على التجارة البحرية بجانب التجارة البرية .** وقد استفاد الامويون من خبرتهم بالشام وجهة بحرية متوسطية اتضحت منذ ولاية معاوية الشام واستقرت عند قيام الخلافة الاموية،«وهكذا بدا التحول ـ فى اتجاه الدولة الاسلامية عامة ـ منذ فتوح الشام ايام ابى بكر وعمر وكان أثر بنى أمية واحلافهم فيها واضح ، ثم حرص معاوية منذ استقر له الامر فى الشام ان يوجه الدولة كلها وجهة غريبة متوسطية وجرى على هذا السنن من آتى بعده من خلفاء بنى أمية بعد ان نشأت الدولة قارية فى محيط صحراوى ... وقد عبر عن ذلك بدقة جود فروا ديمومبين : ( لقد كان الشام الاموى مسندا ظهره للبحر المتوسط ، مواجها خصمه الخطر الوحيد الامبراطورية البيزنطية وكان يبدو ان مصائر الشام فى ذلك العصر الاموى كانت متوسطية ولكن موارده كانت قليلة ... فكان لابد له من الاستعانة بموارد وادى النيل (٢٩) .

وقد قام بعبء الملاحة فى البحر المتوسط أهل سواحل الشام وقد كانوا على طول أيام الروم وحتى منتصف القرن السابع الميلادى حملة النصيب الاكبر من عبء التجارة فى البحر المتوسط . وكانت لهم جاليات تجارية فى كل موانىء البحر ، وفى كثير من بلاد الداخل ، بل فى العاصمة نفسها .

ومن الاسباب المقررة لاضمحلال بيزنطة الاقتصادى اعتناق أهلها مبدأ عدم نقل السلع الى المناطق الاجنبية ، وانتظار المشترى الاجنبى حتى يحضر اليها فتحدثنا نصوص القرن السادس الميلادى أن سكان أربونة ( نربون ) Narbonne مثلا يتكونون من الرومان واليهود والاغريق والسوريين ، وأشار سيدونيس Sidonius الى وجود كثير من السوريين فى رافنا أواخر القرن الخامس الميلادى ، ويذكر الرواة أخبار رجال سوريين فى ثغور غاله وبلادها كانوا يملكون الضياع والقصور

---

(٢٨) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 19:22, 24, 26-7

(٢٩) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م٤ع١ مايو ١٩٥١

Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 270.



http://al-maktabeh.com

ويبتنون البيع ، وقد يذكرون فى النصوص باسم المشـــارقة الى جانب اليهود والاغريق • وانتشر السوريون فى أرجاء فرنسا فى خلال العهـد الميروفنجى وتوغلوا فى الداخل واندمجوا مع السكان حتى يتعذر اعتبارهم غرباء • وقد أقاموا فى نيس ومرسيليا ، ومن مرسيليا ساروا مع الجارون الى بردال ( بوردو ) وصعدوا مع نهـــر ردانة ( الرون ) الى ليون ومع اللوار أورليان وتور ، وفى ايطاليا أقام المشارقة فى نابلى وأوســـتيا Ostia بل تستطيع تتبع آثارهم فى بريطانيا وألمانيا • وهنـــاك شواهد على تمتع الجاليات الشرقية بذاتيتها فى مدن الغـرب بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين • وكانت البضائع التى تحمل الى موانى هذا البحر شرقية ، وقد أورد بيرين قائمة بها ، ومن أهمها التوابل ـ خاصة الفلفل ـ والبردى والزيت ، وقد صدرت سوريا الحرير والخمور من غزة وساربتا Sarepta وعسقلان والزجاج من صيدا ومواد متقنة الصنع من صور وبيروت •

وكان الحرير السورى زينة القصور والكنائس وكان التجار المشارقة المقيمون فى غالة وغيرها من النواحى المطلة على البحر التيرانى ـ يهودا وغير يهود يحترفون التصدير بجانب الاســـتيراد وبخاصة الرقيق وظل الجزء الشرقى أى الاغريقى من الدولة الرومانية والجزء الذى أغار عليه الجرمان يتعـــاملان بالعملة الواحدة التى كانت أســـاس التعامل أيام الامبراطورية الرومانية Solidos ، مع اختلافات طفيفة أحيانا فى بعض الجهات فى الوزن أو المعدن ، وكان التجار السوريون لدى نزولهم فى موانى البحر التيرانى يجدون نفس العملة التى اعتادوا عليها فى بحر ايجة • بل ان ملوك المتبربرين أنفسهم قد أدخلوا على العملة فى بلادهم نفس التعديلات التى أدخلها الأباطرة البيزنطيون • وبقى الشرق والغرب مرتبطا أحدهما بالآخر اقتصاديا لصالح التجار الشرقيين وفيما عدا جهات من ايطاليا مثل البندقية التى تاجرت بسفنها مع الشرق بقى الغرب مجالا لاستثمار سوريا والاسكندرية والقسطنطينية » ولم يتوقف البحر المتوسط ـ **الذى اتجه نحوه نشاط ولايات الامبراطورية الرومانية من بريطانيـا الى الفرات ـ** عن القيام بدوره التقليدى بعد الغزوات الجرمانيـة وظل عند المتبربرين طريق الاتصال الرئيسى مع الامبراطورية البيزنطية ويكفى أن نذكر هنـا النشاط البحرى السورى الذى ظل قائما فيما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين بين ثغور حوض البحر المتوسط وثغور مصر وآسيا الصغرى ،

http://al-maktabeh.com

واحتفاظ الرومان بالصولدى الرومانى .... » على حد تعبير بيرين Pirenne (٣٠) .

وجاء الاسلام « فورث الاحتكار القرشى لرحلة الشتاء والصيف ، وانتهت اليه مهمة الاشراف على التبادل التجارى بين الشرق والغرب والسيطرة على طرق القوافل العربية ، وورث مع ذلك كله عبء مجابهة المنافسات الداخلية والخارجية حول هذه الطرق . وقد وجه الاسلام عنايته نحو **طريق القوافل الشمالى** : حيث كان عليه أن يؤمن المصالح التجارية ضد مناوأة اليهود فى الواحات الواقعة على طوله ، وضد فلول الغساسنة وضد القبائل العربية الشمالية الموالية للبيزنطيين ، وضد الخطر الذى يهدد التجارة العربية من ايلة ومن دومة الجندل (٣١) » .

## الثغور وأهميتها التجارية فى الدولة الاسلامية

تشغل ثغور الشام والجزيرة على السواء موقعا هاما بين الشام ( وهو يطل على البحر المتوسط ) والعراق وأرمينية ( وهى قريبة من بحر قزوين والبحر الاسود ) وآسيا الصغرى ، وقد ارتبطت مع هذه الجهات بشبكة من الطرق يسرت اتصالها بما حولها وهيأت لها دورا تجاريا كبير . وقد عدد الجغرافيون المسلمون فى كتب المسالك وغيرها هذه الطرق ، وفصلوا مراحلها ومسافاتها وسككها وبتتبع هذه الطرق يمكن تبين هذه المجموعات:

١ ـ **الاتصال بين الجزيرة والثغور الجزرية** : تتفرع الطرق داخل العراق فترتبط بين مختلف أجزائه ، وعن طريق الجزيرة فى الشمال يمكن الوصول الى الثغور الجزرية والى أرمينية أو الشام . وقد كانت الرقة مركزا هاما للمواصلات ومنها يمكن الوصول الى الثغور الجزرية : وهى سلغوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور . ويسير الطريق من الرقة الى عين الرومية ، فتل عبدا ، فسروج ، فالمزينة ، فسميساط فحصن منصور ، فملطية ، فزبطرة ، فالحدث ، فمرعش ، فعمق مرعش وهناك طريق من ملطية الى كمخ .

(٣٠) دكتور مؤنس المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ ، بيرنز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٧٧ ـ ٨ ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ترجمة عيسى صفحة ٢١ ـ ٢ ،
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 40-1. Byzantium. p.67

(٣١) دكتور حسن الباشا : طرق التجارة العربية من عهد سبا الى صدر الاسلام ـ المجلة ع ٤ ابريل ١٩٥٧ .

http://al-maktabeh.com

**٢ ـ الاتصال بين الشام والثغور الشامية :** وتتفرع الطرق داخل الشام فتصل بين شتى **انحائها وعن طريق حلب فى الشمال يمكن الوصول الى الثغور الشامية ومنها الى آسيا** الصغرى أو ثغور الجزيرة • وهكذا تربط الطرق حلب بقنسرين وانطاكية والمصيصة واذنة وطرسوس وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء وتل جبير •

**٣ ـ الاتصال بين الجزيرة والشام :** وقد أورد الجغرافيون اتجاهات متعددة للاتصال بين ذراعى الهلال الخصيب ، ويمر معظمها بمنطقة الثغور والعواصم :

( ا ) **فهناك طريق يربط الجزيرة بساحل الشام :** ويسير من الرقة الى دوسر ويستمر حتى يصل جسر منبج فمنبج ، ويدخل فى ديار الشام فيمر بحلب والاثارب ويجتاز عمق انطاكية الى انطاكية ثم يصل اللاذقية على ساحل البحر المتوسط • ويتابع الطريق الساحل متجها نحو الجنوب فيمر بجبلة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وقيسارية وارسوف ويافا وعسقلان وغزة •

(ب) **وهناك طريق من الرقة الى قلب الشام حتى دمشق :** وهو حين يصل الرصافة يصير أمامه طريق الى دمشق فى البرية ، وآخر الى حمص فى العمران والأخير يمر بسلمية وحمص •• ومنها تتعدد السبل للوصول الى دمشق •

(ج) **غير أن هناك طريقا جنوبيا يصل بين العراق والشام ويسير من الكوفة الى دمشق :** وهذا الطريق بالطبع بعيد عن نطاق الثغور الشامية والجزرية •

**٤ ـ الاتصال بين شمالى الشام والجزيرة وبين آسيا الصغرى :** وقد حاول ابن خرداذبة أن يتتبع مراحل طريق درب السلامة الى آسيا الصغرى حتى خليج القسطنطينية ويبدأ من طرسوس الى العليق ( ١٢ ميلا ) ، ثم الى الرهوة ثم الى الجوزات ( ١٢ ميلا ) ، ثم الى الجرد قوب ( ٧ أميال ) وثم الى حصن الصقالية ، ثم الى البدندون ( ٧ أميال ) وهو يتابع بيان مراحل الطريق فى قلب بلاد الروم ، ويذكر الطرق المتعددة فى داخلها للولوج الى خليج القسطنطينية • أما المقدسى فيذكر أن أقصر الطرق الى القسطنطينية من اقليم اقور « وكان ثغرة ملطية » •

**٥ ـ الاتصال بين الجزيرة وارمينية :** وتقترب الجزيرة من ارمينية ، علاوة على قربها من آسيا الصغرى واتصالها بالشام عن طريق الثغور ،

http://almaktabah.com

وقد ذكر الجغرافيون المسلمون مراحل طريق يمتد من نصيبين الى أرزن «وهو يسير من نصيبين الى دارا الى كفر توثا الى قصر بنى نازع الى آمد الى ميافارقين الى أرزن» وهى مدينة تتاخم أرمينية (٣٢) » ٠

**فمنطقة شمال الشام والجزيرة ـ والثغور على حافتها ـ تربطها الطرق بما حولها من أقاليم ، وتقترب بوساطة هذه الطرق من البحار ٠** وهذا الموقع يهيىء لتلك المنطقة دورا هاما بالنسبة لتجارة الشرق مع الغرب ٠ وقد أبرز المنصور من بين أسباب اختياره موقع بغداد سهولة مواصلاتها مع الجزيرة وأرمينية والشام وما جاوز ذلك بجانب اتصالها عن طريق الخليج الفارسى بتجارة الشرق الأقصى فقال : « هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيئا يأتينا فيها كل ما فى البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجىء فيه كل شىء من الشام والرقة وما حول ذلك (٣٣) » ٠ وقد تكلم ابن خرداذبة عن « مسلك التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية » واليهود الراذانية هم الذين عرفوا فى غربى أوربا باسم Radanites نسبة الى نهر الرون وهو روادنوس فى اللاتينية لأن مراكزهم كانت فى بلاد حوض هذا النهر وقد كانوا يقدمون حاصلات الشرق لمجتمع الغرب فقدموا للكنائس البخور وللبيوت الفلفل ، وهؤلاء كانوا « يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق ، برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والسمور والسيوف ٠ ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى ، فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم ٠ وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجده ، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين السمك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملون الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى : فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها الى الروم ، وربما صاروا الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك ٠ **وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد** ، ثم يركبون فى دجلة

---

(٣٢) بن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٦ : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٣ قدامة : نبذ من كتاب الخراج ـ ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢١٤ ـ ٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ـ ٩ ، ٢٢٨ ـ ٩ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٨ ٠

(٣٣) الطبرى جـ ٩ ص ٢٣٨ ٠

http://al-maktabeh.com

الابلة ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين ـ كل ذلك متصل بعضه ببعض . فأما مسلك تجارة الروس ، وهم جنس من الصــقالبة ـ فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة الى البحر الرومى ، فيعشرهم صاحب الروم وان ساروا فى تنيس ـ نهــر الصقالية ـ مروا بخمليج مدينة الخزر ، فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون فى أى سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصــقالبة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية (٣٤) » .

وللمدن الشام وثغورها مركز تجارى هام من قديم ، ونرى الاصطخرى يبين مدى ارتباط الشام بالبحر الاحمر فيعتبر القلزم « فرضــة مصر والشام ، ومنها تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر » ، كما يبين أهمية حلب فى اتصال الشام بالعراق فهى «عامرة بالأهل جدا على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات » وكمـا يقول ابن حوقل انها كان لها « أسواق حسنة وحمامات وفنـادق ومحال وعراص ، ولم تزل أسعارهم فى الاغذية وجميــع المآكل قديما واسعة رخيصــة (٣٥) » . ويروى ياقــوت من رســالة كتبهـا ابن بطلان المتطبب الى هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى سنة ٤٤٠ هـ فى دولة بنى مرداس « ومن عجـائب حلب ان فى قيســارية البز عشرين دكانا للوكلاء ، يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مســتمر ذلك منذ عشرين ســنة والى الآن » . ونقل ابن الشحنة هذه الحقيقة واستطرد الى الحرير خاصة فقال :

« ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف واليزرى والقماش العجمى وأنواع الفرا من السمــور والوشق والفنـك والسنجاب والثعلب وسائر الحرير والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الاجناس فانه قد يتفق أن يباع فيها فى يوم واحد ما لا يباع فى غيرها فى شهر ـ كل ذلك بأطيب ثمن ورغبة . مثلا اذا أحضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع فى يوم واحد ويقبض ثمنه ، ولو حضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة أحمال لا تباع فى شهر » .

---

(٣٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ٤ دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ـ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ ـ مايو ١٩٥١ .

(٣٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٠ ، ٤٦ ، ابن حوقل .

http://almaktabeh.com

ويذكر ياقوت أن « لأهل حلب عناية باصلاح أنفسهم وتثمير الاموال ، فقل ما ترى من نشئها من لم يتقبل أخلاق آبائه فى مثل ذلك ، فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » ، وتجود فيها حاصلات كثيرة على المطر . فلا غرابة أن ينهض رخاء حلب بالتزامات الدفاع عنها وهى ثقيلة ، فنقل ياقوت أن حلب تقوم برزق خمسة آلاف فارس موسع عليهم ولولا الاسراف لقامت برزق سبعة آلاف فارس اذ يحصل بعض الفرسان فى العام على مابين ١٠ر٠٠٠ ، ١٥ر٠٠٠ درهم « وفى أعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها .. ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عنبا وحبوبا ما يقارب فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، وقد ارتفع اليها فى العام الماضى — وهو سنة ٦٢٥ هـ — من جهة واحدة وهى دار الزكاة التى يجبى اليها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع : سبعمائة ألف درهم ، وهذا هو العدل الكامل والرفق الشامل (٣٦) » .

وقد كان لمتابعة الجهاد فى منطقة الثغور وشحنها بالمقاتلة آثار محمودة فى تأمين الطرق ورواج التجارة ، فيذكر ابن حوقل : « وبالس أول مدن الشام من العراق كان الطريق اليها عامرا ومنها سابلا ، وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات . وكان بطرسوس رخص عام على مر الايام ، وكانت من العمارة والخصب بالغاية ، وليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخرزستان والمغرب — الا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليه وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق ، فهلكوا . وبغرس على طريق الثغور كان فيها دار لزبيدة ، ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة (٣٧) » .

ويروى ياقوت فيما يرويه من رسالة ابن بطلان « ... فوجدنا المسافة التى بين حلب وانطاكية عامرة لا خراب فيها أصلا ، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت الزيتون قراها متصلة ورياضها مزهرة

---

(٣٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ابن الشحنة : الدار المنتخب ص ٢٥٤ .

(٣٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن حوقل .

http://almaktabeh.com

ومياهها متفجرة يقطعها المسافر فى بال رضى وأمن وسكون • وبين انطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى فى بليد يقال له السويدية ترسى فيه مراكب الافرنج يرفعون منه أمتعتهم على الدواب الى انطاكية » • « وقال احمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة الى اذنة فى مرج وقرى متدانية جدا وعمارات كثيرة (٣٨) » • وتصل الشام حاصلات جزر البحر المتوسط « وعرض البحر من سواحل الشام اذا استوت الريح يومان الى قبرص ، ومن قبرص الى الجانب الآخر من البحر نحو ذلك • ويقع بقبرص الميعة التى تحمل الى بلدان الاسلام من بلد الروم والمصطكى تكون بقبرص • وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر ، فان العمارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة •• وبصقلية من الخصب والسعة والزروع والمواشى والرقيق — أكثر ما يقع منها — ما يفضل على سائر ممالك الاسلام المتاخمة للبحر (٣٩) » •

وقد كان للرباطات البحرية دور فى التبادل التجارى « وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم — الروم — ويذهبون اليهم فى الرسالات ويحمل اليهم أصناف الاطعمة ، وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم •• فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معهم (٤٠) » •

**وعن الجزيرة وأهميتها التجارية** كتب المقدسى يقول : « اقليم اقور واسطة بين العراق والشام ومنازل العرب فى الاسلام ، ومعدن الخيل العتاق ومنه ميرة أكثر العراق ، رخيص الاسعار جيد الثمار » • ويقول عن مدينة الرقة : « حسنة الاسواق ، وانتشر فى الاقليمين ذكرها : فالشام على تخمها والفرات الى جنبها ، الا ان الاعراب بها محيطة والطرق اليها صعبة » • ويسهب المقدسى فى تعداد تجارات اقوار ، من خيول وحبوب وفواكه وفحم وحديد وزيوت وعسل وصابون وثياب الصوف والكتان • واشتهرت الموصل كذلك بالمصنوعات الخشبية لأن موقعها على الاطراف الشمالية ووجود الجبال حولها أتاح نمو الغابات ، ويتصل الاقليم من ناحية بآسيا الصغرى « وأقصر الطرق الى القسطنطينية من هذا الاقليم ، وكان ثغرة ملطية » ، كما يتصل من ناحية أخرى بارمينية اذ ترد الى الموصل قوافل الرحاب — وأرمنية جزء منه فى تقسيم المقدسى ،وهذا الاقليم « جل وطاب ،وكثرة فيه الثمار والاعناب ورخصت به الاسعار ،منه ترتفع الاصواف

---

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٤ ، ١٦٦ •
(٣٩) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥١ •
(٤٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٧ •

http://almaktabeh.com

المعمولة والتكك العجيبة . ثمن الخروف درهمان ، والخبز بدانق لبنان ، والفواكه بلا عد ولا ميزان ، به المتاجر المفيدة والثمار اللذيذة » . ويشتهر الاقليم بصناعة أنواع مختلفة من المنسوجات كما يشتهر بسمك الطريخ وأنواع من الفواكه (٤١) . ووصف ياقوت الموصل بأنها « محط رحال الركبان ومنها يقصد جميع البلدان ، فهى باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الي اذربيجان . وكثيرا ما سمعت ان بلدان الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق ، ودمشق لأنها باب الغرب ، والموصل لأن القاصد الى الجهتين قل أن لا يمر بها .. » ، ونصيبين « من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، وفيها وفى قراها على ما يذكر أهلها اربعين ألف بستان (٤٢) » .

وكانت الصلات التجارية بين الدول الاسلامية وجيرانها من الامم الشرقية كالصين والهند والتركستان والروم منتعشة فى فترات السلم لتيسير المواصلات البرية او البحرية ، اما اوربا فكانت تتاجر معها الاقاليم الواقعة على ساحل بحر الروم وبخاصة الشام ومصر . وفكر الرشيد فى فتح قناة بين البحرين الابيض والاحمر مما يلى الفرما ــ كما يروى السيوطى ــ لتصل سواحل شمالى افريقية والاندلس وصقلية والفرنجة بسواحل جزيرة العرب وفارس والعراق ، غير أن بعض خاصته ومنهم يحيى البرمكى ثناه عن ذلك مخوفا اياه من خطر هجوم الروم على مقدسات المسلمين فى لاحجاز بعد أن ينفتح امامهم الطريق ، وقال البعض بطغيان مياه البحر الابيض على الاحمر مما يسبب غرق سواحل مصر والصعيد واليمن والحجاز (٤٣) .

**ولعبت السوق دورا كبيرا فى حياة المدينة العربية** ، وتركت فيها الحياة الصناعية والتجارية . وفى الشام كان السوق من آثار التراث البيزنطى ، فالمصانع والدكاكين تقوم فى المدن المتأثرة بالطرز الاغريقية على طول طريق النصر بين الباب الرئيسى للمدينة ومعبد الاله الأكبر الذى تحول الى كنيسة فمسجد ، وتجمع أصحاب الحرف والتجارة فى جماعات فى حي أو عدد من الأحياء الخاصة . وكان التجار الأجانب يخزنون بضائعهم فى مخازن خاصة ، كما كانوا ينزلون هم ودوابهم فى بنيات مستطيلة واسعة حيث وجدت حول الصحن اصطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوى غرفا

---

(٤١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٥ ــ ٦ ، ١٤٨ ، ١٣٨ ، ٢٧٣ ، ٣٨٠ .

(٤٢) ياقوت : معجم البلدان حـ ٨ ص ١٩٥ ــ ٦ ، ٢٩٢ .

(٤٣) دكتور جومرد : هرون الرشيد حـ ٢ ص ٣٧٠ : ٢ .

http://al-maktabeh.com

تنفتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق بهو دائرى ـ وهذا هو القيصرية ( أى السوق الامبراطورية ) بالاصطلاح السورى الفلسطينى والمغربى أيضا • وهذه الفنادق أو الخانات لا توجد فى المدن فحسب ، بل وفى المحطات على طول الطرق التجارية فى الشرق • ولم يقتصر نشاط السوق على بيع الانتاج المحلى اذ توفرت فيها البضائع الأجنبية كذلك ، وحملت اليها تجارةالشرق الأقصى عن طريق البر والبحر • ويعود الفضل للأمويين فى بناء أساطيل اسلامية فى الشام ومصر • **ولم تعق الحروب داخل الشرق الأدنى ، رحلات التجار كثيرا ، وانما عاقتها ثورات الزط والزنج القرامطة ورحب المسلمون بالتجار الأجانب وكانوا يدفعون العشور ويعتبرون مستأمنين لمدة عام قد تمد أحيانا ، وكان للتجار مكانتهم الاجتماعية • ونال الدمقس ( نسبة الى دمشق ) والموسلين ( نسبة الى الموصل ) تقدير الغرب ، فالأقمشة الرقيقة والمخمل والأنسجة الناعمة المطرزة أو المصنوعة من الحرير خرجت من مصانع فارس وبغداد ودمشق وآسيا الصغرى** • واحتفظ الصناع القبط فى مصر بتقاليد الفراعنة فى صناعة الحرير ، وكان الخليفة يمنح الخلع كجوائز أو هدايا وحاكاه فى ذلك رجاله وعماله • وتحوى المجموعات الاثرية العالمية نماذج عديدة من أوانى الخزف والنحاس والزجاج والصناديق المطعمة بالأحجار الكريمة والفضة والعاج وغيرذلك ـ كمانشطت صناعة الجلود •وأدت مقايضة المعادن الثمينة من معاملات مستمرة **وكانت العملة فى الايام الاولى للاسلام الدينار من الذهب فى الغرب حيث الولايات التى كانت تابعة للبيزنطيين والدرهم من الفضة فى الشرق حيث الولايات التى كانت تابعة للفرس • وفى القرن العاشر الميلادى ـ الرابع الهجرى سار الدينار الذهبى البيزنطى والدرهم الفضى الفارسى جنبا الى جنب فى التعامل • وحين ضرب الخلفاء عملات ذات قيم متعددة انغمرت الاسواق بقطع نقدية ذات أصول وقيم مختلفة كان على الصرافين الموازنة بينها تحت اشراف المحتسب** ، وكان الصيارف اليهود والنصارى يعيرون مبالغ كبيرة للدولة والتجار ويشتغلون فى ضروب المعاملات النقدية كما اشتغل الاغريق بذلك أيضا (٤٤) • ويرى ماسينيون ان الصيارفة المسلمين لعبوا دورا فى فتن الشيعة ، اذ كانوا يتسلمون الأموال والزكاة ويرسلونها الى الأئمة • وقد أعفيت الارض التى تقام عليها الحوانيت من الخراج ، وسمح بتحويل الارض التى ليس لها مالك الى أسواق • وكانت الأسواق مركزا لعقد الصفقات والمؤامرات أيضا ومجالا

---

(٤٤) ديمومبين : النظم الاسلامية ترجمة السامر والشماع ص ٢٤٩ : ٢٥٥ ، ٣٥٨ •

http://al-maktabeh.com

للاتصال والاختلاط وقد وضعت تحت مراقبة دقيقة فبعد الغروب يحمل التجار تجارتهم الى مخازنهم وتخلى السوق الا من الحراس • وقد كان التفتيش يجرى على الاسعار والمكاييل والموازين • وكان يجلس فى السوق الناقد لتمييز الدراهم ويراقب المحتسب عمليات البيع لمنع غش المبيعات وتدليس الاثمان والبخس والتطفيف ويختار الدلالين متوخيا فيهم الامانة والنزاهة ، ويراقب جودة المصنوعات والصاغة والحاكة والصباغين حتى لا يهربوا بأموال الناس أو حاجاتهم ، **كما كان من مهام المحتسب مراقبة السفن والملاحة والتجارة الخارجية فى الثغور** • واتبعت الحكومة سياسة حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة الاسلامية ولم تحتكر تجارة أى بضاعة ، أو تمنع مبادلتها ، وكانت احتكارات الافراد فى الغالب محلية مؤقتة لا تدعمها امتيــازات حكومية ، فلم تؤثر على الاسعار تأثيرا مستمرا أو شاملا فى كافة أنحاء الدولة • وكانت الحكومة تجبى ضرائبها من الزراع نقدا وعينا فتخفف عنهم أعباءها فلا يضطرون لبيع محصولاتهم بأسعار رخيصة كى يحصلوا على أموال لسداد الضرائب • كذلك كانت ضرائب الدولة ثابتة فأدى هذا الى ثبات الاسعار بعض الشىء• وكانت الحكومة تدفع الى المقاتلة وعيالاتهم عطاء ثابتا يحدد القوة الشرائية لهم كمستهلكين ، وقد ضيقت أرزاق الحنطة والشعير والزيت فرص التلاعب فى أسعار ضروريات المعيشة كما يرى الدكتور صالح العلى • وفى عهد عبد الملك بن مروان زيدت الجزية على أهل الجزيرة ـ فأقبلوا يبيعون انتاجهم فانخفضت الاسعار ، أما فى عهد عمر بن عبد العزيز فقد كثرت الاموال فى أيدى النـــاس نتيجة لتيســيره عليهم فارتفعت الاسعار (٤٥) • وكان ولاة البريد يكتبون للمنصــور كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول ، فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها أمسك وان تغير شىء كتب للوالى والعامل سائلا عن العلة (٤٦) • وكان ترف الخلفاء من دواعى رواج التجارة ، وكان للعباسيين أثر كبير فى ذلك • واقترن نمو التجارة بظاهره فى سياسة الخلافة النقدية اذ استخدمت عوضا غن الاساس الفضى أساسا ذهبيا فى القرن التاسع الميـلادى ، فبينما كانت الضرائب تحصـــل فى الاقاليم الشرقية بالدراهم الفضية تحول الحساب الى الدينار الذهبى » (٤٧) •

---

(٤٥) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق تحت الحكم الاموى ص ٣٦٢ ـ ٣ ، ٣٦٦ ـ ٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ •

(٤٦) غنيمة : تجارة العراق ص ٤٦ •

(٤٧) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيره ص ١٧ ـ ١٨ •

http://al-maktabeh.com

وكان للتجار الأجانب المارين بديار الاسلام وضع خاص ، فهم قد يتسترون بالتجارة ويقصدون التجسس وقد قيل للمنصور انه لا يؤمن ان يكون بين التجار الغرباء الذين يقدمون بغداد جواسيس ومن يتعرف الاخبار « فأمر باخراج السوق من المدينة وجعلها للشرط والحرس وبنى للتجار بباب طاق الحرانى وباب الشام والكرخ (٤٨) » ومن أجل هذا نص أبو يوسف على أنه « لا ينبغى للامام أن يترك احدا من أهل الحرب يدخل بامان أو رسولا من ملكهم يخرج بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فاما الثياب والمتاع فهذا وما اشبهه لا يمنعون منه » . وعرض أبو يوسف لحكم القادم المستامن فى المبايعة بالخمر والخنزير واخذه بالحدود ورجح ان تجرى عليه أحكام الاسلام فى هذا الصدد ، وان طال به المقام أمر بالخروج فان أقام حولا وضعت عليه الجزية . ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حمله الريح بمن فيه حتى القته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فقال أهل المركب : انما نحن تجار حملنا معنا تجارة لندخلها بلادكم « لم يقبل ذلك منهم ، وصبروا وما معهم فيئا لجماعة المسلمين » (٤٩) .

## حركة التبادل التجارى بعد الاسلام

كان رخاء سوريا وآسيا الصغرى عظيما تحت الحكم البيزنطى ، على الرغم من تأثر بعض أجزائها بالزلازل وغزوات الفرس ، واستمر رخاؤهما حتى بداية القرن السابع الميلادى واعترف بروكوبيوس بانتعاشهما ولا بد أن ادخال تربية دودة القز فى **أواخر القرن السادس م** اضاف الى رخائهما الزراعى رخاء آخر وزاد من الحرير الخام، واثرت مدنهما بالتجارة مع جميع بلاد البحر المتوسط . وتركزت التجارة العالمية بين أقاليم الغرب الزراعية وبين بلاد الشرق فى ايدى العملاء الشرقيين من السوريين واليونانيين و اليهود ذلك ان السوريين المقيمين بفرنسا فىالقرن السادس وأوائل القرن السابع استوردوا التوابل والانبذة وورق البردى الى مرسيليا والى المدن الداخلة مثل باريس وتور ، واستقرت جاليات منهم فى كل مركز هام من مراكز التجارة ويصدق هذا أيضا على اليهود الذين نشطوا خاصة فى تجارة الرقيق

(٤٨) الطبرى : جـ ٩ ص ٢٦٢ .

(٤٩) ابو يوسف : الخراج ص ١٨٨ ـ ٩ .

http://al-maktabeh.com

بمدن جنوب فرنسا ، اما نشاط اليونانيين التجارى فى الاقليم فكان أقل . وقد كان احتياج أقاليم الشرق للحبوب من صقلية والقمح وزيت الزيتون من شمالى افريقية والخشب والملح من البحر الادرياتى والحديد والمعادن الأخرى من أسبانيا والغال وغير ذلك من المنتجات الطبيعية ، لا يقل عن احتياج الغرب للتوابل وورق البردى والانبذة ، والحرير والمنسوجات وسائر المنتجات الصناعية الفاخرة المصنوعة فى الاسكندرية وسوريا والقسطنطينية . فليس من الصحيح ان التجار المشارقة ـ استنزفوا ذهب الاقاليم الغربية اثناء تسلطهم على تجارة حوض البحر المتوسط ، وليس هناك ما يدل على انحطاط مستوى العملة الذهبية التى ضربها الفرنجة فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين على التصميم البيزنطى . ولم تنجح تماما محاولات البيزنطيين فى تحويل طرق التجارة الشمالية الجنوبية بعيدا عن ايران ، ولا فى الاستغناء بالحرير الخام عن استيراده ، ولا فى ارغام المستوردين للفرس على قبول الأسعار التى حددوها لشراء الحرير ، فاستمر اعتماد بيزنطة على الفرس كوسيط تجارى فضلا عن مواصلتها ارسال منح مالية لآل ساسان . لكن هذا لا يعنى أن ذهب الامبراطورية قد تحول الى الشرق ، بل اوجدت الصناعات الناجحة فى سوريا والقسطنطينية نوعا من التعادل فى ميزان التجارة مع فارس . فقد غدت العملة البيزنطية فى منتصف القرن السادس عملة دولية دون منازع فى منطقة المحيط الهندى التى كان يسيطر عليها تجار الفرس ، ولم يضرب الساسانيون عملة ذهبية قط مكتفين بالعملة الفضية مما يشير الى سيادة البيزنطيين اقتصاديا (٥٠) .

استمرت احوال التجارة فى البحر المتوسط على ما هى فى **النصف** الأول من القرن السابع الميلادى ( الثلث الأول من القرن الأول الهجرى ) ولم تغير الفتوح الاسلامية فى أول الأمر هذه الأحوال الا قليلا، فاستمرت التجارة فى أيدى السوريين واليونانيين ، ولم يحدث تغيير كبير فى توزيع السكان الا فى الاقاليم الساحلية السورية التى تحرك سكانها على أثر الهجوم الفارسى فالعربى ، يلتمسون مأمنا فى آسيا الصغرى وجهات أخرى من بلاد البحر المتوسط ، واستمرت هذه التحركات اوائل الحكم الاموى خاصة بين عامى ٦٦٦ ، ٦٨٩م حيث نشطت جماعات المردة فى توغلها فى اقليم لبنان ، وسحب جستنيان الثانى ١٢ الفا منهم سنة ٦٨٩م ووطنهم فى آسيا الصغرى ، كما أسكن معاوية جماعات من الفرس

(٥٠) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ٦٥ ، ٧١ : ٧٣ .

http://al-maktabeh.com

والزط على طول سواحل الشام . ويمكن القول ان معظم المهاجرين من سوريا أو قبرص أكثرهم من رجال الحكومة البيزنطية أو الكنيسة الارثذوكسية الملكانية ، وأقلهم من التجار أو أهل الحرف الذين تعتبر هجرتهم خطرا اقتصاديا . كذلك ينبغى الا يبالغ فى خسائر الحروب البرية والبحرية بين دمشق وبيزنطه حتى عام ١٩٣ م والواقع ان الوحدة المالية لاقاليم البحر المتوسط ظلت كما هى واستمر استخدام العملة الذهبية البيزنطية كأداة دولية للتعامل التجارى . لكن توقف بالطبع أرسال القمح من مصر الى القسطنطينية مما دفع الاخيرة الى محاولة التوصل لمصادر جديدة خاصة فى المناطق الزراعية فى البلقان وآسيا الصغرى وجنوبى روسيا وهذا أدى لرخاء الفلاحين . وأرسلت مصر قمحها لمكة ولمدينة ، وحفر عمرو ابن العاص سنة ٦٤٣م قناة تصل النيل بالبحر الأحمر فانشيء طريق مائى نحو الجنوب . ولم تكن للمسلمين مصلحة فى الابقاء على قوانين وتعليمات جستنيان فى الاستيراد والتصدير ، **اذ اجتمعت تحت حكمهم أراضى الدولة الساسانية والشام ومصر فلم يكن داع لبقاء مراكز المكوس القديمة التى كانت تقع بين المنطقتين** ، ثم ان القسطنطينية لم تتعنت فى تجارتها مع الشام ومصر الا فيما يتعلق بأخشاب السفن . ولم يسلم البيزنطيون بدورهم حتى سنة ٦٩٣م بانقطاع الصلات بينهم وبين مصر وسوريا نهائيا ، ومن هنا لم يطبقوا عليها أنظمة جستنيان وان تقاضوا الرسوم المقررة على البضائع الواردة منها ويرى ( هيد ) أن العداء الدينى والسياسى بين المسلمين والبيزنطيين قد ذات أمام ضروريات الاتصال بين الفريقين . وقد كانت السفن البيزنطية فى فترة الفتح بعيدة بالطبع عن مصر والشام ولكن هذه القطيعة لم تدم طويلا . واحتكرت الحكومة الامبراطورية صناعة الحرير الارجوانى ــ كما احتكرت الحكومة العربية فى مصر دور الطراز ــ الا أنها لم تتشدد فى تطبيق الاشراف الحكومى على صناعات أخرى ، واختفت رقابتها على أصحاب سفن التجارة البحرية navicularii **وصارت حرية التجارة فيما يبدو هى قاعدة التعامل فى بلاد البحر المتوسط** . يتضح هذا من قانون رودس البحرى الذى صدر حوالى هذا الوقت تقريبا ، وبمقتضاه صار ربابنة السفن أحرارا فى تصرفهم لهم أن يتجهوا للحصول على شحنات لسفنهم حيث شاءوا . وليس هناك دليل على اشراف الحكومة على البحرية التجارية بعد الفتح الاسلامى فى القرن السابع على عكس ما كان أواخر العصر الرومانى وأوائل الحكم البيزنطى ، ويمكن القول بصفة عامة ان **القرن**

http://al-maktabeh.com

السابع كان عصر تجارة شير مفيدة فى البحر المتوسط ، وعم الرخاء مدن الشام الداخلية ، وساعد عليه وعلى نشاط التجارة زوال الحواجز الرومانية القديمة بين الشام والعراق ، أما المدن الساحلية فان الهجرة منها والغارات البحرية عليها قد عاقتها عن بلوغ مستوى مدن الداخل • على انها ظلت قادرة حتى أوائل الحكم الأموى على امداد الأسطول العربى بقوات كبيرة • وعانت الدولة البيزنطية من غارات المسلمين على حدودها وعاصمتها ، ولكن أرشيبالد لويس يرى أنه « ليس ثمة دليل على وجود ازمات اقتصادية حادة ازعجت الدولة ــ مثل تلك الازمات التى واجهها هرقل • والواقع ان نظام حكومات الثغور أو الأجناد أثبت انه نظام فعال زهيد التكاليف ، واحتفظت معه تجارة القسطنطينية بأهميتها المعهودة • كما لم تقل العملة الذهبية فى وزنها ولا عيارها » • وازدهرت تجارة البحر الاسود مع مدينة خرسون ومملكة الخزر ــ التى قامت فى منطقة جنوبى الروسيا وبحر قزوين والتى حالفت هرقل فى كفاحه ضد العرب ، وتوطدت علاقاتها بالبيزنطيين منذ ذلك الوقت ففتح ذلك أمامهم طرقا للتجارة مع الصين غير الطرق الفارسية التى يتحكم فيها العرب • ومن هنا قامت العدواة بين الخزر ــ ودولتهم تقوم على التجارة خاصة ــ وبين جيرانهم الأمويين ، مما يشهد بما كان للتجارة عبر بلادهم من اهمية « والظاهر أن نصف القرن الأول من حكم العرب لسوريا ومصر لم يحدث انقلابا كليا فى الأوضاع الاقتصادية فى شرقى البحر المتوسط ولا يوجد دليل على ان ذلك العصر شهد تدهورا فى رخاء اقتصاديات الأقاليم الغربية • حقيقة وجد ثمة أثر لهجرات السكان وتحركاتهم ، كما اضطربت التجارة العالمية بسبب الحروب التى نشبت بين دمشق والقسطنطينية فى البحار ، ولكن تأثير هذا كله كان فيما يظهر طفيفا جدا خلال القرن السابع الميلادى(٥١) وقد استعمل طريقا الخليج الفارسى والبحر الاحمر جنبا الى جنب ، فقد صارا تحت نفوذ قوة سياسية واحدة • وجاءت الملاحة العربية فى البحار الشرقية امتدادا ، للملاحة والتجارة الساسانية التى تبرز نشاطها فى جهات الشرق الأقصى كتابات كوزماس ــ وبروكوبيوس ، وكان الفرس يبحرون طلبا للأحجار الكريمة والحرير وقد استخدموا سفنا كبيرة • وهناك مايدل على ان الملاحة الشرقية كانت سنة ٧٢٧م فى ذروتها ، مما يرجح ابتداءها قبل ذلك بكثير ، وثمة روايات عن رحلات

---

(٥١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية التجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٢٠ ــ ٩ •
Heyd: Hist. du Commerce Lu Levant. Vol. I. p. 52.

http://almaktabeh.com

سابقة تصل الى سنة ٦٧١م وقد واصل الفرس الملاحة فى ظل الحكم الاسلامى ، كما ان المسلم العربى كان فى طبيعته تاجرا - ومن هنا كان لابد ان يدخل فى هذا الميدان ، ونرى فى القرن التاسع ان الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الاقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس (٥٢) ويبرز ديموميين وضع الدولة الاسلامية بالنسبة لطرق التجارة العالمية بقوله « كان الخليج الفارسى طريقا نحو المحيط الهندى وحاصلات الشرق النادرة ، كما كان الفرات طوال كثير من العصور طريق السالكين الى البحر المتوسط - الى اليونان وروما » . وكانت الشام اقليما مرتبطا بالبحر المتوسط ومتصلا بآسيا الصغرى من جهة ومصر وبلاد العرب من جهة أخرى ، وقد ارتبط بوادى النهرين عن طريق منحنى الفرات وعبر الطريق الصحراوى المار بتدمر . وقد جمع الساسانيون بين جانبى الهلال الخصيب فى القرن السابع الميلادى لفترة قصيرة ، لكن الشام كان أكثر ارتباطا بآسيا الصغرى ومصر . **وغدت الدولة الاسلامية باستيلائها على فارس وللعراق وريثة نشاط الفرس التجارى فى الشرق الأقصى ، كما غدت بفتح الشام ومصر مطلة على البحر المتوسط وهو حلم الفرس القديم الذى عجزوا عن تحقيقه .** وكان موقع الثغور الجزرية ( ومعها ارمينية ) والشامية ( ومعها ثغور البحر المتوسط ) هاما كمحطات لتوزيع ماجلبه المسلمون من تجارة الشرق على بلدان الغرب ، فطريق الخليج الفارسى يؤدى الى الفرات وثغور الجزيرة وأرمينية وطريق البحر الأحمر تكملة الطرق البرية فتصل به المتاجر الى الشام وثغورها وموانى البحر المتوسط . وحين أرادت بيزنطة أن تستخلص للتجارة مسالك بعيدة عن دار الاسلام تنتهى الى طرابزون ، قامت ثغور الجزيرة وارمينية باستقبال التجارة القادمة عن طريق بيزنطة . « فالشريان التجارى القديم المتدفق الى بلاد الشام وآسيا الصغرى لم يمس بأى تغيير ، اذ أدرك أهالى البلاد المفتوحة فى سرعة واعجاب أن العرب الفاتحين ليسوا شعبا متبربرا متغطرسا يضع العقبات فى سبيل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، بل رأوا من العرب أناسا يتركون الحياة الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم » (٥٣) .

---

(٥٢) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى - ترجمة دكتور السيد بكر ص ١٧٤ ،
Hadi Hassan : Hist. of Persian Navigation. pp. 103:5 ، ٧ : ١٩٠

(٥٣) دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٢١ .
Heyd. Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age. Vol. I. p. 25.
Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Musulm. et Byz. pp. 40:2.

http://al-maktabeh.com

وظهر النظام الاقتصادى للبحر المتوسط بصورة مغايرة خلال **النصف الثانى من القرن السابع الميلادى** ( بقية القرن الاول الهجرى ) ويبرز أرشيبالد لويس صورة الاحوال القائمة « .. انه الاضطراب فى مصر ، **والركود فى سوريا** ، والفوضى فى اسبانيا وشمالى افريقية ، والكساد فى فرنسا ، واختفاء التجار السوريين والمصريين من الاسواق الغربية ، وشيوع العملة الفضية فى اسبانيا وفرنسا . انه عالم لم يفلت من تدهوره الاقتصادى سوى بيزنطة وايطاليا وبلاد الخزر . أما فى الناحية السياسية **فقد حل العباسيون والكارولنجيون محل الامويين والميروفنجيين** ، **واتخذ الأولون عاصمتهم الجديدة فى بغداد والآخرون فى اكس لاشابل وكلاهما بعيد جدا عن شواطىء البحر المتوسط** » . فما هى اسباب هذا الانقلاب العميق ؟ لا نجد هذه الاسباب فى هجرات **السكان أو تخريب الحروب ، ويرى ارشيبالد لويس « أن ايضاح ما حدث** من تغيرات سياسية واقتصادية ، نجده فى **تغير طبيعة الصراع بين الأمويين والبيزنطيين فى الفترة من سنة ٦٩٣ حتى سنة ٧٥٢م ... فقد تطرق اليه عنصر اقتصادى»** . وهو يشير الى ضرب عبد الملك للدنانير وتوقفه عن تصدير البردى لبيزنطة « انه اراد ان يقيم سلطانه على اساس اقتصادى مستقل ، وان ينزل باعدائه نوعا من الضغط الاقتصادى ، فكان هذا بمثابة اعلان لاستقلاله الاقتصادى عن بيزنطة، وهو عمل لم يجرؤ أحد من أسلافه على القيام به » . وأجاب جستنيان الثانى باعلان الحرب سنة ٦٩٣ م ، وربما قطع التجارة ايضا . وقد يكون هذا سبب اقفار قبرص من سكانها الذين عاشوا على تجارتهم مع الشام ، وقد يكون هذا أيضا سبب ثورة أسطول كبير هايوت الذى كان يرابط باقليم تربطه علاقات تجارية هامة مع مصر سيما فى تجارة الخشب ، وهذا يفسر دور تجار رافنا فى اسقاط الامبراطور وقد كانوا يصدرون الخشب لمصر من زمان بعيد . وجاء تيبريوس الثانى ، فقرر اعادة اهل قبرص ، ولعله حاول التوصل الى سلام اقتصادى مع الامويين ، لكن عودة جستنيان الثانى الى العرش سنة ٧٠٥ م حملت معها الصراع . والوليد ايضا قد تابع سياسة ابيه سنة ٧٠٩ م وهو الذى سن انظمة جوازات السفر لسكان مصر وربما طبق ذلك فى اجزاء اخرى من دولته ، وتقدمت اساليب الرقابة « **وصارت الامويين دولة عربية اسلامية منظمة على اساس من الوعى الذاتى ، وتجرى على خطة معادية لجاراتها . وهكذا انتهت تلك الايام ــ ايام التجارة الحرة التى عرفها القرن السابع** ، واقبل على الناس عهد جديد» . وفرض حكام

http://al-maktabeh.com

بيزنطة اشرافا اقتصاديا مماثلا ، وضيقوا على الراغبين فى الانتقال للبلاد العربية ، وعادوا الى نظام الرقابة على التجارة الذى كان قد جرى عليه جستنيان وخلفاؤه تجاه الدولة الساسانية ، والذى كانت التجارة الخارجية وطرق نقلها فيه أداة لخدمة الدولة ومصالحها والدفاع عنها — وهو نظام لم يكن قد عدل عنه تماما فى القرن السابع . ومن أمثلة ذلك اصرار بيزنطة على توجيه التجارة نحو ميناء خرسون الخاضع لاشرافها الدقيق ، وقد استخدمت بيزنطة الحرب الاقتصادية حوالى ٧١٥ — ٦ م يشد ازرها الاسطول ضد اقاليم الدولة الاموية وضد بعض جيرانها الاخرين « والظاهر أن بيزنطة اغلقت البحر المتوسط فى وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد العربية ما دامت هذه لم تسر فى المسالك البحرية التى رسمتها وتتبع التعليمات التى اصدرتها ، وعلى هذا لايبدو غريبا ان تقلع فى العام التالى الى القسطنطينية عمارة بحرية اسلامية كبيرة ( ثم حصار القسطنطينية ايام سليمان ٧١٧ م\ ٩٨ هـ) .. غير أن بيزنطة لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم العربى : فالتوابل والبضائع الشرقية التى يقوم العرب فى تجارتها بدور الوسيط هى مواد ضرورية لسلامة الاقتصاد البيزنطى . وعلى هذا لم تحاول بيزنطة فرض حصار شامل اطلاقا ، وخصصت ميناء او اثنين لاستقبال تلك التجارة وفرضت عليهما رقابتها ، ويذكر لنا الجغرافيون العرب ان طرابيزون كانت الميناء الوحيد لدخول جميع التجارة العربية الى بيزنطة فى القرن السابع ، ومع هذا فان قيام ذلك النظام قبل عام ٧١٦ م أو بعده مجرد استنتاج فان طرابيزون التى كانت مركز التجارة العربية البيزنطية قامت بعدة وظائف اخرى لحكام القسطنطينية أولها — انها اعطتهم ميناء فى البحر الاسود آمنا ، بعيدا عن الهجمات البحرية، الثانى — أن البيزنطيين باتخاذهم تلك المدينة نهاية التجارة العربية حولوا تجارة الحرير والتوابل التى يحتاجون اليها الى طريق العراق الذى لا يتهددهم منه خطر بحرى وابتعدوا بها عن سوريا ومصر ، وهما المركزان البحريان لاعدائهم الامويين . ويحتمل ايضا قيام القسطنطينية نفسها بمهمة الثغر الثانى لاستقبال وخروج التجارة العربية » . وهكذا وجدت التجارة الشرقية سبيلها عن طريق البر عبر آسيا الصغرى ، أو اتجهت صوب البحر الاسود الى طرابيزون حيث تنقلها سفن الروم الى القسطنطينية ، على اثر توقف المواصلات المباشرة بين الشام والامبراطورية اول الامر . وقد يسر للبيزنطيين مهمة الرقابة انتشار قوتهم البحرية فى البحر المتوسط منذ انتصارهم سنة ٧١٨ م وامتلاكهم

http://al-maktabeh.com

جزء البليار – وسردانية وقورسقة واشرافهم على مضيق سيناء بينما كانت الطريق الممتدة على سواحل البحر المتوسط الجنوبية بين مصر وشمالى افريقية وهى الواقعة تحت نفوذ المسلمين – شديدة الخطورة على الملاحة ، ولكن رعايا بيزنطة كانوا يحاولون هم أيضا أن يتملصوا من رقابة دولتهم ، فقد كانت التجارة مع الاقاليم الاسلامية عصب حياتهم الاقتصادية على أن الحصار الاقتصادى البيزنطى ادى الى آثار بالغة الأهمية « ففقدت سوريا مركزها التجارى حوالى سنة ٧٥٢م ( أى بعد سقوط الامويين ) وفقدت مدنها الساحلية اهميتها كذلك ، ولم تعد قادرة على حشد الأساطيل لأكثر من ٢٠ عاما . وسقطت خلافة الأمويين عقب انكسارهم البحرى والاقتصادى على أيدى البيزنطيين ، ثم انتقلت الخلافة الى العباسيين فاقاموا سلطانها فى العراق حيث تمر التجارة الهامة الى طرابيزون ، وهبطت دمشق الى مستوى المراكز الاقليمية ذات الدرجة الثانية » (٥٤) .

**ويلقى ارشيبالد لويس مسئوليه الحالة التى انتهى اليها البحر المتوسط وتجارته فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى كما صورها على بيزنطة التى أسرفت فى استخدام كل مالديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لاحراز النصر ، ولكن هنرى بيرين صاحب الكتاب الذائع (( محمد وشرلمان )) وغيره من الابحاث فى الموضوع يرى الامور من زاوية اخرى** . وخلاصة نظريته ان دخول المسلمين حوض البحر المتوسط افقده طابعه الذى لازمه طول العصور القديمة ، وبدلا من أن يظل واسطة الاتصال بين الشرق والغرب أصبحت مياهه حدا فاصلا بينهما . واذا كانت الدولة البيزنطية قد وفقت فى حماية بحر ايجه من المسلمين الى حد ما فان أوربا الغربية قد عجزت امامهم حتى سادوا حوضه الغربى والبحر التيرانى وحصروا السواحل الجنوبية لغربى أوربا معتمدين على مراكزهم فى المغرب والاندلس وجزائر صقلية وسردانية وقرسقة والبليار التى ملكوها ، فامتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرقى ايطاليا « واستحال عليهم أن يخرجوا فيه بسفين » . كما يقول ابن خلدون . وجاءت امبراطورية الكارولينجيين برية صرفة على حين كان البحر مفتوحا فى عهد الميروفنجيين ومن سبقهم من الرومان . وكان لهذا اثاره البعيدة فى أحوال اوربا الغربية الاقتصادية والاجتماعية

(٥٤) ارشيبالد لويس القوى البحرية والتجارية ترجمة احمد عيسى ص ١٣٢ : ١٤٣ وايضا
Runciman : Byz. Civ. p. 133.

http://al-maktabeh.com

خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الميلاديين - حين بلغ عداء الجبهتين النصرانيه والاسلاميه ذروته . وبينما نجد حركة تجارية متواضعة بين بلاد المسلمين والبندقية وبعض المواقع البيزنطية على ساحل البحر التيرانى مثل نابلى وامالفى نلاحظ توقف كل لون من التبادل التجارى بين غاله وبلاد المسلمين ، وقد هاجم المسلمون سواحل أوربا النصرانية فى عنف متصل حتى اوائل القرن الحادى عشر،وتوقفت الملاحة والتجارة ، لان التجار الذين عرفهم غربى أوربا قبل القرن التاسع كانوا يعتمدون اعتمادا تاما على البضائع الواردة من الشرق عبر البحر المتوسط . وعلى هذه التجارة الشرقية عاشت المدن الرومانية التى ظلت عامرة الى اواخر العصر الميروفنجى اى نهاية القرن الثامن الميلادى . وكانت نتيجة النشاط البحرى الاسلامى « اقفال البحر الابيض الغربى » على حد تعبير بيرين La fermeture de la Mediterranée occidentale وهو يقول « طالما ظل البحر الابيض مسيحيا كانت الملاحة الشرقية هى التى تقوم بعبء التجارة مع الغرب ، وكانت مصر والشام مركزيها الرئيسيين . وكانت هاتان الولايتان الغنيتان أول ما وقع تحت سلطان المسلمين .. ولم تتوقف تجارة التوابل أو صناعة البردى ، ولم يتوقف النشاط فى الموانى .. وعلى هذا فقد استمرت التجارة ، ولكن اتجاهها هو الذى تغير . ومن الطبيعى أن الفاتح (المسلم) منع رعاياه من المتاجرة مع بلاد النصارى طول فترة الفتوح، وعندما هدأت الحرب واستقر السلام عمد الاسلام الى توجيه التجارة فى الوجهات الجديدة التى فتحتها أمامها فتوحه ، لقد انفتحت طرق تجارية جديدة ربطت بحر قزوين بالبحر البلطى عن طريق نهر الفولجا . ومن المؤكد ان الاضطراب الذى كان لابد أن يلازم حركة الفتح الاسلامى للشام ولمصر قد اوقف الملاحة مؤقتا .. **وابتداء من منتصف القرن السابع اصبحت الملاحة - من موانى البلاد الاسلامية وموانى بحر ايجة مع البلاد التى ظلت نصرانية - مستحيلة . اما من الموانى البيزنطية وما كانت تحميه من السواحل المحيطة بها فقد ظلت الملاحة قائمة فى حماية الاسطول البيزنطى** . واستمر الاتصال مع الأقاليم الاغريقية من بلاد اليونان والبحر الادرى (الادرياتى) وايطاليا الجنوبية وصقلية.. وبدأ المسلمون يهاجمون صقلية ابتداء من سنة ٦٥٠ م .. ثم بدأ فتح الاندلس عام ٧١١ م وكانت النتيجة ان اصبح كل لون من الملاحة البحرية مستحيلا فى البحر الأبيض الغربى ، ولم يعد فى استطاعة بقية الموانى النصرانية أن تحتفظ باتصال ملاحى فيما بينها . وهكذا نستطيع ان نقرر **ان الملاحة**

http://al-maktabeh.com

**توقفت من حوالى سنة ٦٥٠ م مع كل البلاد الشرقية الواقعة شرقى صقلية ، وانه خلال النصف الثانى من القرن السابع توقفت الملاحة تماما فى شواطىء الغرب جميعها . ويبدو توقف هذه الملاحة تماما فى أوائل القرن الثامن .** لم تعد هناك ملاحة فى البحر الأحمر الا فى السواحل البيزنطية .. وخلال القرن التاسع نجد المسلمين يستولون على الجزائر ويخربون الموانى .. **لقد انكسرت الوحدة الاقتصادية للبحر الأبيض وستظل كذلك حتى الحروب الصليبية »** . واهم نتائج هذا التغيير فى اوضاع البحر المتوسط سرعة تحول العالم الاوربى الغربى الى عالم زراعى قارى لا صلة له بالبحر ، وقد جر ذلك بدوره الى نتائج أخرى . اذ وقع غربى أوربا بين حصار النورمانديين من الشمال وحصار المسلمين من الجنوب وغارات الافار والمجر من الشرق : « وكان نتيجة هذا الحصار الشديد وما تبعه من اختفاء التجارة واضمحلال المدن ، أن تحول المجتمع فى غربى أوربا الى مجتمع زراعى صرف واصبح الناس جميعا يعيشون على نتاج الارض وحده مباشرة وغير مباشرة .. ويمكن القول ان غلبة نظام الاقطاع على غربى أوربا خلال القرن التاسع ، كان النتيجة السياسية لتحول المجتمع الاوربى الى مجتمع زراعى خلال هذا القرن » (٥٥) .

ولا يوافق ارشيبالد لويس على ما وصل اليه بيرين فيقول « رأى المؤرخ بيرين ماحل بالبحر المتوسط من خراب ، ولكنه أخطأ التحرى عن المسئول عن ذلك . **كان البيزنطيون لا العرب كما زعم هم الذين دمروا الوحدة القديمة التى ربطت اجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض ، ذلك ان بيزنطة استخدمت فى حرب الحياة أو الموت التى كانت بينها وبين الامويين جميع ماالديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية** لاحراز النصر فى المدة بين ٧١٥ : ٧٥٢ م وتكون بيزنطة قد دمرت بعملها الوضع الاقتصادى القديم لعالم البحر المتوسط وهيات المسرح لظهور حياة أخرى جديدة » (٥٦) .

ويذكر الدكتور حزين أشارة ابن خرداذبة الى رحلات التجار اليهود الراذانية بين الغرب والشرق ، واشارته الى رحلات التجار الروس الذين يأتون عن طريق جنوبى روسيا الى بحر قزوين وبغداد أو يسلكون

---

(٥٥) دكتور مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ــ المجلة التاريخية المصرية م ٤ ع ١ مايو ١٩٥١ نقلا عن Pirenne : Mohammed et Charlmagne

(٥٦) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ــ ترجمة احمد عيسى ص ١٤٥ .

http://al-maktabeh.com

الطرق البرية خلال الاندلس والفرنجة ثم يعبرون الى المغرب الاقصى فافريقية فمصر فدمشق فالكوفة فبغداد ثم يسيرون شرقا حتى الصين، ويرى أن هاتين الاشارتين تجعلان من الواضح انه **حتى الجزء الأخير من القرن التاسع الميلادى لم يكن الشرق الاسلامى حاجزا دون الاتصال المباشر بين طرفى العالم ، وعلى ذلك ينبغى ـ على الاقل ـ تأجيل تاريخ مثل هذه القطيعة حتى القرن العاشر الميلادى (٥٧) .**

ومضى حكام القسطنطينية فى سياستهم الاقتصادية ازاء اقاليم البحرين الابيض والاسود خلال **القرن الثامن الميلادى** ( اواخر القرن الاول الهجرى ، ومعظم القرن الثانى الهجرى ) وكانت بيزنطة قد تفوقت بحرا من ٧٥٢ م ، فاستمر الضغط البرى عليها من جانب الفرنجة والبلغار والعباسيين . وحيل بين سفن التجار المصريين والسوريين وبين الوصول الى غرب البحر المتوسط . وربما كان لسياسة العباسيين فى مواصلة سياسة الامويين الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركة التنقل أثر فى اغلاق غربى البحر فى وجه المسلمين ، ولكن الأرجح أن سياسة القسطنطينية وحدها هى التى ادت الى هذه النتيجة. **واستمر قصر دور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ولبلاد الغرب عامة عبر ثغر طرابيزون على البحر الاسود ، وهذه التجارة هى المستوردة من الوسطاء العرب فى بلاد فارس والعراق** . وربما سمحت بيزنطة لبعض التجارة ان تمر عبر مصر والشام ، على أنه من المؤكد أن هذا كان يخضع لاشراف دقيق ، ولا بد أنهم اشترطوا أن تاتى السلع الى القسطنطينية أولا . ووصلت بعض منتجات شرقية اخرى كالمنسوجات الحريرية والتوابل بيزنطة عن طريق بلاد الخزر الى ثغرخرسون حيث الاشراف الدقيق ، وقد ظل هذا الثغر بالنسبة لتجارة الشمال اكبر منفذ لتجارة الفراء والرقيق وسائر المنتجات الروسية التى تحكم فيها الخزر كوسطاء ، اما تجارة البلغار فاتجهت صوب سالونيكا والقسطنطينية والظاهر انه وجد **تراخ ملحوظ فى تنفيذ تعليمات الرقابة زمن ايرين** ( وصية ـ ٧٨٠ : ٧٩٠ م ٧٩٢ : ٧٩٧ م ـ امبراطورة ٧٩٧ : ٨٠٢ م ) حيث كانت التجارة تسير فى حماية اسطول الشام الذى واصل العباسيون الاهتمام به على الرغم من بقائه غير قوى ، وكان من الصعب على بيزنطة اغلاق جميع طرق التجارة البحرية من قواعدها فى كريت وصقلية وقبرص ومالطة وقوصره . ويتضح مما كتبه ابن خرداذبة عن

---

(٥٧) Huzayyin : Arabia and the Far East. pp. 154:6.

http://al-maktabeh.com

الطرق فى عصر العباسيين الأوائل ان الطريق الرئيسية بين الرقة ومصر لم تسلك سبيلها الى الساحل ، بل سارت فى الداخل من الرقة الى دمشق واقتربت من الساحل فقط عند جنوبى فلسطين ، ولم يتبع الطريق بين مصر وشمالى افريقية الطريق الرومانية الساحلية بل سلكت فى الداخل مجموعة من الواحات الصحراوية . وتعذر انتقال السفارات بين الكارولنجيين والعباسيين عبر المسالك البحرية التى تسيطر عليها بيزنطة بين الشرق والغرب ، فسلك معظمها طريقا ملتوية . على أنه رغم القيود البيزنطية نشط التجار البنادقة فى تصدير الرقيق والخشب لمدن الشواطىء الاسلامية حتى حذر ليو الخامس رعاياه فى أوائل القرن التاسع ( لا سيما البنادقة ) من الاتجار مع سوريا ومصر ـ وهذا يدل على انتشار هذا التعامل من قبل وعلى ان البيزنطيين كانوا لا يرون فيه حرجا كما يستنتج ( هيد ) بحق ، ويحتمل وجود محاولات مشابهة لوقف التعامل التجارى المحظور بين جزر بحر ايجة وشواطىء آسيا الصغرى من جهة وبين مصر والشام من جهة أخرى . وقد دفعت محاولات بيزنطة المسلمين الى اتخاذ اجراءات انتقامية مما ادى الى هجرة كثير من المسيحيين من الشام الى قبرص والأناضول سنة ٨١٣م. وربما كانت بيزنطة ترد بمحاولاتها تلك على ثورة توماس الصقلى ٨٢١ : ٣ م الذى تقبل العون من الاساطيل المحلية للولايات البيزنطية ومن المامون . **ولا شك ان فرض قيود دقيقة على التجارة مع سوريا ومصر كان معناه القضاء على رخاء البنود ( الثيمات ) البحرية وهى قواعد الاساطيل الاقليمية** . ويفسر اتجاه اللاجئين الاندلسيين من الاسكندرية الى كريت مباشرة بوجود محاولات للتهرب من القيود على التجارة ، وليس ببعيد وجود علاقات تجارية بين جزيرة كريت والاندلسيين اثناء اقامتهم بالاسكندرية . فى الجانب الغربى من البحر المتوسط نشأت علاقات تجارية بين البلاد العربية وبين ممتلكات تابعة لبيزنطة مثل أمالفى ونابلى وجاتيا من مدن البحر التيرانى .

على أن غالبية طرق التجارة الدولية فى البحرين الأسود والمتوسط ظلت تتجه عموما نحو المناطق التى تريدها بيزنطة مثل خرسون وطرابيزون والقسطنطينية وسالونيكا وصقلية وجاتيا وأمالفى ونابلى وبارى والبندقية. **ولعل نظام الرقابة على التجارة هو خير ما يفسر الصراع الطويل بين شرلمان**

http://almaktabeh.com

**وبين بيزنطة حتى عام ٨١٢م : اذ حاول أن يواجه قواعد الاحتكار التجارى البيزنطى فى ايطاليا ولا سيما البندقية .**

وقد أدت الرقابة البيزنطية الى تغيير وسطاء التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، فابتداء من سنة ٧١٦ م حالت التدابير الاقتصادية البيزنطية دون وصول التجار السوريين والمصريين الى أسواق الغرب ، وانتهى الأمر بأن **حددت بيزنطة عددا معينا من المنافذ التجارية** واشترطت الا تسلك التجارة غيرها ، بل جعلت توزيع البضائع الثمينة كالحرير والتوابل احتكارا لتجار تلك المنافذ التجارية ومن سمح لهم بالقدوم اليها لأغراض التجارة : فمن خرسون قام الخزر بتصدير البضائع البيزنطية الى روسيا وممتلكاتها ، ومن طرابيزون عاد التجار العرب والأرمن بالبضائع الى بلادهم ، ومن صقلية قام تجار شمالى افريقية بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الاقصى . ثم أخذت هذه المدن ترسل سفنها الى مصادر التجارة والى القسطنطينية لتربح من نقلها بجانب توزيعها . **ولقد ظلت القسطنطينية مركز التقاء جميع طرق التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ولكنها لم تتول الا القليل من عمليات الاستيراد والتصدير ، ولذا انتقلت الاهمية التجارية أكثر فأكثر الى أطراف الدولة وأدى هذا الى قيام قوى بحرية عند أطراف الدولة استطاعت مخالفة السياسة البيزنطية ، وتاجرت مع الموانىء الاسلامية فى شمالى افريقية ومصر والشام .**

وبازدياد خروج عمليات نقل التجارة من أيدى البيزنطيين الى أيدى الأغراب البعيدين ، ازداد التدهور الملحوظ فى قوة أساطيل الأجناد البيزنطية فى بحر ايجة وكبيرهايوت ، وهذا يفسر ضعف بيزنطة البحرى فى أوائل القرن التاسع وهكذا انتهى هذا النظام البيزنطى الى نوع من السلبية الاقتصادية والى ضعف بحرى « وأخذت بيزنطة طريق الركود الاقتصادى : شأنها شأن ضحيتها سوريا ومصر . حقيقية كانت بيزنطة لا تزال غنية ولا تزال قوية ، ولكنها لم تستطع أن تحافظ المحافظة الواجبة على نظام الرقابة على تجارة البحر المتوسط الذى أقامته ضد اعدائها » .

ويبدو أن أكثر توابل الشرق وحريره ومنتجاته وردت الى القسطنطينية وعالم البحر المتوسط عن طريق الطرق الساسانية القديمة : البرية التى تسلك فارس ، أو البحرية التى تسلك الخليج الفارسى الى البصرة ثم بغداد التى غدت مدينة عالمية كبرى .

http://al-maktabeh.com

ونشط التجار المسلمون فى مياه الشرق الأقصى حتى وصلوا الصين، **وانتقلت عن طريق العراق كميات من بضائع الشرق الى البحر الاسود الذى كان المدخل البيزنطي لتجارة العرب • وأصبحت أرمينية بحكم عبور التجارة الى طرابيزون أشبه ما تكون بدولة حاجزة بين دولتين كبيرتين وان** خضعت بصورة أوضح **للنفوذ العباسي** ، وقد بلغت درجة كبيرة من الثراء والرخاء • **وربما لم يشجع العباسيون استخدام طريق البحر الاحمر لنقل تجارة الشرق بسبب حرصهم على زيادة رخاء العراق مثلما فعل الساسانيون** ولكن السبب الأقوى هو أن بيزنطة لم تشجع ورود هـــذه التجارة عن طريق البحر المتوسط ، رغم ازدهار تجارة البحر الاحمر فى أوائل عهـد الأمويين •

وتقول الروايات العربية ان المنصور طم القناة الموصلة للبحر الأحمر سنة ٧٦٢م لقطع أوصال فتنة وقع فى الحجاز ، ولكن الأرجح أن ذلك كان لتحويل التجارة للعراق مركز قوة العباسيون ووجد الرشيد من صرفه عن فكرة وصل البحرين الأبيض والأحمر بحجج شتى •

وحوالى عام ٨٠٠م اختفت تجارة البحر الاحمر الا من أيدى اليهود وحدهم • وشاهدت موانى مصر على البحر المتوسط وموانى الشام ركودا الا بعض رحلات من الأخيرة لعلها بلغت القسطنطينية • ونزح عدد من المسيحيين من هذه السواحل سنة ٨١٣م تحت ضغط العباسيين ، ويدل بقاء استخدام الذهب فى الشام على استمرار بقاء التجارة بينها وبين مصر والقسطنطينية على أن أحوال قبرص الواقعة بين شواطىء الشــــام وبين الامبراطورية البيزنطية دون أن يتسلط عليها أحدهما أو كلاهما تدل على أن التجارة بين تلك الأقاليم المتجاورة لم تكن على جانب كبير من الانتعاش ، ومن هنا تدهورت مدن قبرص فى تلك الفترة •

وما يقال عن نهايات طرق تجارة البحر المتوسط فى الشام ومصر يقال مثله عن نهايات الطرق فى غربى هذا البحر • ولم يفلت من هـــذا الركود الاقتصادى الذى أصاب بلاد البحر المتوسط سوى الامبراطورية البيزنطية ذاتها وايطاليا معها (٥٨) •

وشهد **القرن التاسع** الميلادى ( أواخر القرن الثانى الهجرى ، معظم القرن الثالث الهجرى ) عهدا جديدا فى تاريخ البحر المتوسط ، بدأ باغارة

---

(٥٨) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ــ ترجمة أحمد عيسى ص ١٧٤ : ١٩١ ، ١٩٥ •
Runciman : Byz. Civ. pp. 133-4.
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 52-3.

http://al-maktabeh.com

المسلمين على صقلية ثم استيلائهم على كريت سنة ٨٢٧م • فعادت الامبراطورية البيزنطية الى مواجهة قوة بحرية معادية وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل الى المسلمين الذين انتشروا على الشواطىء الجنوبية لذلك البحر من جبال طوروس حتى جبال البرانس ، ولم يأت القرن العاشر الا وقد انتقلت السيادة الكاملة في البحر المتوسط للمسلمين• **غير انه لم يكن هناك نظام موضوع لسيطرة تامة الا بالمعنى العام ، ولم توجد وحدة سياسية وبحرية شاملة تضم جميع البلاد الاسلامية المحيطة بالبحر المتوسط • وأهم القوى الاسلامية : قوة متوسطة ربطت صقلية بشمالى افريقية تحت حكم الاغالبة ثم الفاطميين ، والى غربها قوة الأندلس، والى شرقها قوة تتكون من كريت المستقلة ومن أساطيل طرسوس وهى فى حكم المستقلة وأساطيل الشام ومصر •**

وقد توحدت هذه القوة تحت حكم الطولونيين والأخشيديين ولكن ذلك لم يدم • وكان أول المستفيدين من سيطرة المسلمين البحرية من الوجهة الاقتصادية هم سكان صقلية وسكان شمالى افريقية بصفة خاصة • وتمتع الشام بالرخاء أيضا رغم تأثر بعض الاقاليم بالصراع بين العباسيين والطولونيين والاخشيديين وبين الاسرات الصغيرة الحاكمة فى دمشق وحلب وطرسوس ، وانتعشت طرابلس وبيروت وصور سائر الموانى الساحلية لاعادة فتح البحر أمام التجارة الاسلامية ، وعاد التجار السوريون الى البحر ثانية رغم أن مجال تجارتهم ظل أكثر انحصارا فى نطاق محلى من مجال تجارة اخوانهم أهل المغرب الذين اتجهوا الى مصر والقسطنطينية ، وعظم الرخاء ـ التجارى والصناعى ـ فى حلب ودمشق وبيت المقدس •

**وانتشر الدينار الذهبي شرقا وغربا ، وصارت بلاد العالم الاسلامى مرتبطة تجاريا داخل وحدة اقتصادية واحدة** ، وفى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر اختفى الدرهم الفضى من العراق وايران والمحيط الهندى وانتشر الدينار الذهبى أيضا وبقيت الفضة للاستخدام المحلى والثانوى والتعامل التجارى مع روسيا وغربى أوربا فحسب • وانتشر نظام الجوازات المعمول به فى مصر والموروث عن الأمويين شرقا حتى بغداد ، وشاعت أساليب حكومية واقتصادية مماثلة من الاندلس الى التركستان، **وأشرفت الدولة الاسلامية بدقة على تجارة الصادر والوارد واقتضاء العشور من التجار • وليس ثمة دليل على محاولة الشعوب الاسلامية التحكم فى التجارة الذاهبة الى الامبراطورية البيزنطية أو الخارجة منها** ، وكان تعدد الدول الاسلامية يحول دون تطبيق مثل هذه السياسة لو وجدت ـ وسمحت فترات السلام الطويلة بين المسلمين والبيزنطيين بكثير من

http://al-maktabeh.com

النشاط التجارى بين الطرفين ، فظلت القسطنطينية أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر مدينة قوية غنية وبقيت عملتها نقية متداولة .

واستمرت طرابيزون المنفذ التجارى الذى تتلقى بيزنطة عن طريقه الحرير والتوابل والعطور وبضائع العراق وفارس من بلاد شرقى العالم الاسلامى ، كما استمرت خرسون المدخل الوحيد لمنتجات روسيا ونهاية طريق تجارة الحرير الذاهب الى الصين ــ وهو الطريق الذى ظل طويلا تحت اشراف الخزر ، وفرضت ضريبة العشر على الواردات . واتجر البلغار والروس الفارنجيون مع القسطنطينية ، وقد حافظت بيزنطة على صلاتها مع بلاد الغرب اللاتينية عن طريق المدن التجارية الايطالية ، ولكن أنشط علاقات بيزنطة التجارية كانت مع المسلمين الذين أمدوها بما تحتاج اليه من الحرير والتوابل والعطور **وعدل اباطرة القسطنطينية عمليا فى اساليب الرقابة الموجهة ضد التجار المسلمين فى البحر المتوسط** ، ويبدو أنه كانت هناك محاولة لاجتذاب التجارة الاسلامية فى البحر المتوسط الى القسطنطينية ، وأقيمت وكالتان بها لتجار الحرير الفاخر وتجار التوابل والعطور ، وعومل التجار المسلمون الذين حملوا المنسوجات الحريرية والكتانية معاملة أفضل من سائر التجار الاجانب ، ولقى السوريون ترحيبا خاصا وهم يحملون معهم العطور والمنسوجات البغدادية . وشاهدت هذه الفترة تعاملا أكثر حرية من جانب القسطنطينية مع بلاد البحر المتوسط الاسلامية . على أن الرقابة الحكومية الاقتصادية لم تخف الا قليلا . اذ تطلب النظام الامبراطورى البيزنطى تنظيما دقيقا لأحوال الصناعة فاق ما عرف عند المسلمين فى مصر وشمالى افريقية ، ويؤكد كتاب المحتسب The Book of the Prefect مدى اتساع تلك الرقابة المرة بعد المرة .

وقد تضمنت قصة القديس الياس الكاستروجيوفانى خبرا ذا دلالة : فقد تنقل الرجل داخل بلاد المسلمين بحرية تامة ، على حين قبض عليه كجاسوس فى ايطاليا البيزنطية . وكان البيزنطيون يجعلون لأنفسهم وحدهم الحق فى أنفس الاقمشة ، والحكومة وان لم تحرم تصديرها بصورة رسمية الا أنها وضعت فى سبيل ذلك مختلف العقبات .

ونحن نرى ليتبراند Liutprand أسقف كرمون Cremone فى نهاية سفارته الثانية يحتجز موظفو المكوس منه خمسا من أنفس قطع الحرير ، رغم تأكيده بأنه اشتراها للكنيسة وبتصريح الامبراطور . على أن ليتبراند لم يتعرض لمثل هذه المعاملة فى زيارته الأولى سنة ٩٤٩م .

وقد كانت البضائع تمر مهما كانت القيود صارمة أو هينة ، وكان

http://al-maktabeh.com

التجار يتحايلون برشوة موظفى المكوس أو تجنبهم كلية بسـلوك طرف بعيدة عن مراكزهم ، وهكذا وصلت البضائع المحظورة الى جهات ايطاليا مرات متعددة وبكميات ليست بالقليلة • والغالب أن ميزان التجـارة البيزنطية مع العالم الاسلامى كان فى صالح البيزنطيين ، لأن أقمشتهم الحريرية الرقيقة والمطرزة ومصنوعاتهم الدقيقة كانت موضع التقدير فى الشرق والغرب ، لكنها ربحت أكثر فى تجارتها مع أوربا وروسيا •

على أن كميات الحرير التى كانت تنتجها المصـانع الامبراطورية فى القسطنطينية لم تكن كافية قط لاحتياجات البلاط والدولة ، وكان الأباطرة خلال القرن التاسع الميلادى ـ والعاشر أيضا يشترون الاقمشة الواردة من مصر الى القسطنطينية والأشـياء المصـنوعة فى الشرق عموما والتى تدل أسماؤها على أصلها ، من أجل زينة قصورهم وبهاء حاشيتهم •

وكانت المصانع الخاصة أكثر عجزا عن الدفاع بمطالب التجارة فقد كانت تشكو منافسة مصانع الدوالة وفداحة الضرائب ، وقد حرمها الفتح الاسلامى من أسواق هامة • وقد كان التاجر القادم الى القسطنطينية يجد عند مقدمه أنواعا متعددة من الحرير المحلى والأجنبى ، وقد اشتهرت العاصمة البيزنطية كسوق تحوى أكبر كمية من أنواع الحرير • وكان الطلب يتجه خاصة الى الأقمشة الارجوانية التى كانت تعدها المصـانع الامبراطورية باتقـان ، واكتفت بيزنطة بأن تكون مجـالا للتجارة دون أن تعمد الى الاتجار لحسابهـا الخاص ، ولم يتحمس البيزنطيون لنشر تجارتهم فى البلاد المجاورة كما لاحظ هيد Heyd وديل Diehl فيقول هيد : ان البيزنطيين بوجه عام لم يبذلوا كثيرا من الجهد لتوزيع المنتجات المحلية الآسيوية المكدسة بمخازنهم فى الأقطار المجاورة • فقـد كان الأباطرة يرغبون أن يبهروا أعين الأمراء الأجانب بجودهم وهداياهم الغريبة ، وهكذا أحبوا استعراض الواردات الثمينة فى القسطنطينية ولم يعرفوا ميزة السياسة التجارية الواسعة النطاق والتى تيسر لشـعوب أخرى الحصول على هذه الأشياء الفخمة • وقصر التجار البيزنطيون نشاطهم على الحصول على الضروريات اللازمة تاركين للمغامرين الاجانب مصـاعب الرحلات التجارية البعيدة ومخاطرهـا • وكان يرضى كبرياءهم أن يروا السفن التجارية لمختلف أمم أوربا فى مينـاء القسطنطينية ، وأن تغدو ( سيدة المدن ) مركز تجـارة الغرب ، أما أن يفقدوا باهمالهم أحسن الفرص لزيادة ثروتهم ـ فقد كان شـيئا أقل أهمية فى نظر البيزنطيين وما كان أيسر عليهم لو أرادوا أن يلقوا بالبضائع بالجملة فى أسـواق

http://al-maktabeh.com

أوربا ـ خاصة جهات أوربا التى كانت علاقاتهم بها وثيقة ، ولكنهم آثرو ان يقدم الى القسطنطينية أهل تلك الجهات ٠

وقد ساعدت الايطاليين مواهبهم التجارية على الافادة من هذه الظروف حتى صاروا بمضى الوقت الموردين الموحدين لمنتجات حوض البحر المتوسط الشرقى فى أرجاء الغرب ٠ وفى هذه الفترة ظهرت شمال افريقيا وأسبانيا وصقلية كمناطق صناعية هامة : تستغل مناجمها وترقى بصناعاتها وزراعاتها ، وتسيطر على تجارة البحر المتوسط القاصدة الى الشرق والمخترقة طرق الصحراء الى ذهب السودان ، كما عاد الرخاء الى الشام ومصر وعادت التجارة الى البحر الأحمر ٠

والغالب ان سياسة المسلمين ازاء تجارة أوربا اللاتينية كانت هى سياسة السماح التى اتبعوها مع بيزنطة (٥٩) ٠

وساعد على نشاط المسلمين فى التجارة الشرقية امتداد دولتهم نحو الشرق ٠ وتسابق المسلمون والبيزنطيون فى السيطرة على أسواق الروس ( الصقالبة ) ، وقد وصف ابن خرداذبة فى القرن الثالث الهجرى طريقهم من أقصى بلاد روسيا الى العراق : مارين ببلاد الخزر حيث يجبى صاحبها منهم المكوس ومنها الى بحر جرجان ثم يحملون متاجرهم من جلود الثعالب السود والسيوف على ظهور الابل الى بغداد ٠

وفى سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م اتصل الخليفة بملك الفلجا ، وأسلم الملك وشعبه فى العام التالى ٠ وحين تولى آل سامان حكم الجزء الشمالى الشرقى من دولة الاسلام حفظوا تخوم البلاد وضمنوا للتجار الوافدين الربح ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوربا ترجع الى القرن الرابع الهجرى وأكثر من ثلثها من نقود السامانيين ٠

وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر الى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمالى أوربا وبين الشرق ٠ على أن المسلمين لم يستطيعوا مزاحمة البيزنطيين فى روسيا بعد أن اعتنق أهلها المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية ، وفشل البلغار فى تحويل فلاديمير أمير كييف الروسى الوثنى الى الاسلام ٠ فتولى أمير كييف حراسة التجار البيزنطيين خلال مسيرهم فى نهر الدنيبر الجنوبى ، واضطلع الروس بصد خطر بلغار

---

(٥٩) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة أحمد عيسى ص ٢١١ ، ٢٥٠ : ٢ ، ٢٥٨ ـ ٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ : ٨ ، ٢٧٥ :
Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 53:6.

http://al-maktabeh.com

القرم عن اجتياح منطقة خرسون ، وفى مقابل ذلك منحت الدولة البيزنطية سفن الروس تسهيلات فى البحر الأسود ، وخلا الجو للروس والبيزنطيين تماما بتخريب عاصمة الخزر على أيدى فرع من النورمان سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م ركبوا نهر الفلجا ، فغدا الروس يقصدون بلاد الخزر وديار الاسلام مباشرة حاملين متاجرهم ولكن عمل الخزر كوسطاء فى تجارة الشمال ٠

**وقد نشأ عن التقدم التجارى ازدهار الجاليات الاسلامية فى كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين فكان لا يرأس الجالية الا مسلم وكان افرادها لا يقبلون غير حكم المسلمين فيهم مهما قلوا :** مثلما حدث فى بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وصيمور ( الهند ) ، وكان بالصين وكوريا جالية اسلامية ، أما فى بيزنطة فكان لا يسمح لتجار المشرق بالاقامة أكثر من ثلاثة أشهر ، وكانت إكبر جالية لهم فى طرابيزون (٦٠) ٠

ومن وجهة النظر الاقتصادية يمكن القول باستمرار الأحوال على ما هى عليه فى عالم البحر المتوسط الاسلامى بين لشبونة ودمشق خلال **القرن العاشر** ، الميلادى ( أواخر القرن الرابع الهجرى ) ، على الرغم من ضعف بحرية العالم الاسلامى وانتعاش بحرية بيزنطة وعلى الرغم من الانقسام السياسى فى الاندلس وشمالى افريقية٠ ولم يؤثر تغير ميزان القوى على الرخاء الاقتصادى فى أقاليم البحرين الأبيض والأسود والأندلس واتسعت زراعة الحاصلات الشرقية وازدادت حركة التجارة وشاع استخدام الدينار الذهبى ٠ وشاركت الامبراطورية البيزنطية العالم الاسلامى فى الرخاء٠ **وادى توسع البيزنطيين فى شمال الشام واستيلاؤهم على انطاكية وسيطرتهم على حلب الى زيادة قوتهم التجارية التى دعمها ما كان لهم من سلطان على شمالى العراق ٠ وللمرة الأولى منذ القرن السابع الميلادى وقع فى أيديهم افضل طرق التجارة من العراق والخليج الفارسى الى البحر المتوسط ٠**

ومع أن معظم تجارة الشرق الذاهبة الى البحر المتوسط جاءت عن طريق عدن والبحر الأحمر - وهو الطريق الواقع تحت سلطان الفاطميين ، الا أن طرق التجارة الساسانية القديمة ظلت محتفظة بأهميتها ودليل ذلك

(٦٠) متز : الحضارة الاسلامية - ترجمة دكتور ابى ريدة حـ ٢ ص ٢٧٣ : ٥ ، دكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٣٠ : ٤ ، ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ١٢٤ ٠

Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. pp. 57:74.

http://al-maktabeh.com

يتمثل فى المعاهدة التى عقدت أواخر القرن العاشر بين القسطنطينية وبين حكام المسلمين فى حلب ، ومن شروطها : أن يكون للموظفين البيزنطيين فى المدينة حق تحصـــيل العشر على كل الوارد من الحرير الخام والمخمل والأحجار الكريمة والحلى النفيسة ، على حين يحصل الحكام المحليون ضرائب على المـلابس والــكتان والماشية وسائر البضائع المســتوردة من بلاد الامبراطورية •

ولقد غدت حلب أحد المنافذ الرئيسية لتجارة بيزنطة مع العالم العربى فى الشرق ، حتى استثناها باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجـــار مع الخلافة الفاطمية فى مصر اثر اضطهاد الحاكم للمسيحيين سنة ١٠١٥ م •

والغالب أن حلب أصبحت بدرجة كبيرة أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس وبلاد الشرق بدلا من طرابيزون ، ولا شك أن الطريق الى حلب وانطاكية كان أسهل كثيرا من الطريق المار فى جبـــال أرمينية الى البحر الأسود ، وأدى نفوذ بيزنطة فى شمال الشام الى فقد أرمينية أهميتهـــا السياسية والاقتصادية •

وقد أعقب ذلك اتباع بيزنطة لها وضمها الى امبراطوريتها فى القرن الحادى عشر • ويبدو أن الأرمينيين أنفسهم انتقلوا جنوبا بانتقال الطرق التجارية للجنوب ، وبحلول نهاية القرن الحادى عشر كانوا قد استوطنوا مدن جنوبى الاناضول وشمالى العراق بين الرها وأذنة ـ وعرف هـــذا الاقليم زمن الحروب الصليبية باسم أرمينية الصغرى • وازدهرت قبرص وغدت مركزا تجاريا غنيا عامرا وبلغت القسطنطينية ذروة الرخاء ، ولكن استمرت على سلبيتها فى مجال التجارة الأجنبية ، مع مواصلة اشراف الحكومة على التجارة الخارجية • وقد جرت محاولات لمنع ارسال السفن المحملة بالخشب والحديد والسلاح الى المسلمين ومنع الاتجار مع الفاطميين، على أن الاتجار لم ينقطع طويلا وبقى بعض التجار البيزنطيين يترددون على موانى الشام ومصر ، لكن أغلب التبادل التجارى كان يتم على أيدى التجار المسلمين (٦١) •

وجنت بيزنطة من الحياة الاقتصادية المستقرة فى الشام ثمارا طيبة طالما كان فى استطاعتهما متابعة علاقاتها التجارية مع الشرق « وقد اتيح للامبراطورية البيزنطية والخلافة الاسلامية من فترات السلام ما أعانهـــا على تبين أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما ، فقد ظهر التجار البيزنطيون

---

(٦١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ـ ترجمة أحمد عيسى ص ٢٣٢ : ٦ ،
Runciman : Byz. Civ. p. 183., Heyd: Hist. du Commerce du Levant. Vol. I. p. 43.

http://almaktabah.com

فى كثير من المدن العربية، كما كان التجار يفدون الى بيزنطة لانجاز أعمالهم وأصبحت طرابزون فى القرن العاشر أهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين وقال عنها المسعودى « لها أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم » ٠

وكانت العلاقات الاقتصادية مع العرب غاية فى الأهمية لبيزنطة ولم تكن أهميتها لتقتصر على الناحية التجارية فحسب ، بل كانت تعزز مكانتها الدولية كذلك بالنسبة لعرب آوربا ، اذ كان أكثر تجارة الشرق الاسلامى ينقل قبل فترة الحروب الصليبية عن طريق بيزنطة ، وكانت هذه تجنى دخلا عظيما بفضل قيامها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ولكن الصليبيين أقاموا علاقات تجارية مباشرة بين أوربا والشرق ، حتى أن ازدهار بيزنطة الاقتصادى تلاشى بعد ذلك بقليل ٠ وانتهى دور السيادة الاقتصـــادية الى المدن الايطالية وعلى رأسها البندقية وجنوة ٠ (٦١م) ٠

---

(٦١م) فازيلييف : بيزنطة والاسلام ـ فصل من كتاب Byzantium ملحق بكتاب بينز : الأمبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص (٢٧ : ٣ ، وايضا ص ٢٨٢ : ٦ ٠

http://al-maktabeh.com

## ثانيا : الثغور فى المجال الثقافى

كانت أراضى الهلال الخصيب على اتصال بالصحارى العربية من جهة ، وكانت أطرافه الشمالية بصفة خاصة على اتصال بالهضبة الشمالية فى ايران وشرقى آسيا الصغرى من جهة أخرى ، مما أتاح مجالا خصبا لانتقال الافكار من هنا وهناك • وعلى مقربة من الهلال الخصيب كان هناك العالم الاغريقى ذو الطابع البحرى ، وقد تميز بتوسعه وتغلغله التجارى فى أراضى الهلال الخصيب خاصة فى فترات الرخاء والسلم النسبية ، وهكذا لم يتوقف دخول الآراء الجديدة الى أراضى الهلال الخصيب منذ فجر المدنية •

وتحركت هجرات عربية من صحراء العرب الى بلاد الشام • على ان لبنان كانت واقعة تحت تأثير عناصر قادمة من جهات الهضاب ، وكانت السهول الساحلية تضم بجانب سكان الهضاب والصحارى عناصر من جزر البحر المتوسط الشرقى • وأدى وجود مواضع منعزلة فى أنحاء الشام الى بقاء الجماعات القديمة التى لم تنصهر مع بقية السكان • ويختلف الجانب السورى من الهلال الخصيب فى هذا الصدد عن جانب الجزيرة والعراق حيث كان يتم تمثل الجماعات الصغيرة بصورة أيسر •

وفى خلال الكثير من فترات تاريخ الهلال الخصيب كانت سهوله مسرح نزاع بين الهضاب والصحراء ، كما كانت الهضاب معبراً للتحركات الجماعية من المراعى الشمالية فى التركستان •

**وتعتبر حلب من اقدم مراكز المدنية فى هذه المنطقة ، كما وجدت مناطق التجاء عند شعاب الجبال التى تكتنف سهول الهلال الخصيب مثل جبل سنجار • وقد استمر تسرب المؤثرات الثقافية من الهضبة الى الهلال**

http://al-maktabeh.com

**الخصيب حتى عند ذروة المد السامى. وقد شقت الافكار الفارسية طريقها عبر هضبة الأناضول وسهول الهلال الخصيب الى عالم البحر المتوسط، وكان عليها أن تصارع فى عنف المؤثرات الاغريقية خلال عبورها آسيا الصغرى. كما توغلت الثقافة الفارسية داخل بلاد العرب قبل الاسلام، وخلف النشاط التجارى للفرس آثارا بينة حتى اليمن، بل امتد النفوذ السياسى الفارسى الى هناك فى نهاية القرن السادس الميلادى، وواصل الفرس تأثيرهم الثقافى داخل نطاق الدولة الاسلامية بعد سقوط امبراطوريتهم. وكانت انطاكية من جهة أخرى نقطة هامة للاتصال ومركزا كبيرا للفكر اليونانى فى الشام.**

وقد تأثرت اخلاقيات المسيحية خاصة فى الكنيسة الشرقية بالفلسفة اليونانية، وكذلك كان الحال بالنسبة للثقافة الاسلامية فيما بعد. وقد كان التبادل التجارى بين غربى آسيا وشرقيها يجعل من بعض السلع مثل المنسوجات الحريرية والمصنوعات المعدنية والزجاج والخزف خير وسيط لتبادل المؤثرات الفنية بين مختلف الاقاليم، كما ان اجتماع التجار من مختلف البلاد فى المراكز التجارية المختلفة، كان من شأنه تحقيق الاتصال بين مختلف الثقافات. وكانت الطرق التجارية تمهد السبيل للأهداف الثقافية(٦٢).

وقد تعددت صور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين، وكانت الثقافة احدى جوانبها وكان أمام الفريقين مورد الثقافة اليونانية وقد أكب على تراثه البيزنطيون من قبل وتمثلوه وعلموه. والتقى المسلمون بهذه الثقافة فى الولايات البيزنطية وبعض الاراضى الفارسية التى بسطوا سلطانهم عليها. ويقول ديمومبين « ان الامبراطوريتين - الاسلامية والبيزنطية، على تنافسهما بحكم الموقع الجغرافى والتقاليد التاريخية، وتعاديهما نظرا للخلاف الدينى - كانت كلتاهما ممثلتين للفكر الاغريقى وحفيظتين عليه. وكانت القسطنطينية - الوريثة الطبيعية - قد تركت

---

(٦٢) Hyzayyin : Arabia and the Far East. pp. 1-2, 14-5, 25, 217-8.

http://al-maktabeh.com

هذا الفكر يتضاءل حتى لم يعد له سوى مظهر باهت فى الادب والدين ٠٠ أما الفكر الاسلامى الذى أخذ يتجه أيضا نحو ايران والهند فقد كان أكثر اخلاصا للتراث الهلينى(٦٣) »

على ان الدولتين الاسلامية والبيزنطية كانتا تشتركان فى مظاهر أخرى ، فالوحدات الثلاثة التى كانت قائمة فى العصور الوسطى وقتئذاك: الاســلام ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية اللاتينية ـ كان لكل منها رابطة قوية من الوحدة الثقافية داخل أراضى كل كتلة « وكان الدين فى غالب الامر العامل الاكبر فى تحديد تخوم تلك الكتل ، غير ان هذه الكتل الثلاثة جميعا كانت وارثة الامبراطورية الرومانية وقد صارت الى المسلمين فى الاراضى التى ورثوها عن الروم تقاليد فى القانون والادارة والمالية ، بل حتى فى الفلسفة والأدب والعمارة » ٠ وقد كان على المسلمين أن يمضوا فى عملية اختيار وانتقاء ، ثم ادماج وصهر ، حتى يبدعوا ثقافتهم المتميزة « ولا يلبث الدارس أن ينتبه رويدا رويدا الى التباين المتناهى وراء القناع البهيج الزاهى ، ومع هذا فلا بد من أن يشهد فى النهاية بقيام تلك الوحدة فى التكوين الروحى ، كما يشهد بقـــوة التكيف المدهشة ٠٠ والحضارة الاسلامية تبدو كانما تلتهم كل شىء صادفته ، ولكن الواقع انهـا كانت تتخير غذاءها تخيرا دقيقا ، فلقد تقبلت ـ بل التمست ـ فى الخارج كل مســاهمة من شأنها أن تساعدها على الاحتفــاظ بذاتيتها مهما تغيرت الظروف(٦٤) » ٠

وقد كان للتراث الهلينى وضعه الخاص بالنسبة للفكر الاسلامى «ففى الغرب بقيت لغة الحضارة باقية بعينها أما فى الشرق فقد تغـيرت اللغة وتغير الدين ، فكان لا بد لتراث الاوائل الضخم من أن يبدأ أولا فيصبح عربيا اسلاميا : واذا كان تراث الاوائل فى الغرب قد استطاع أن يغزو شعوبا جديدة ويكسبها لنفسه شـيئا فشـــيئا وبقوة متزايدة وأن يمر بأشخاص كثيرة حملته ، فانه كان لا بد للطبقة الحاملة لمشعل الحضارة الهيلينية فى الشرق من أن تصبح اســــمية ٠ فـكأن تراث الأوائل قد اصطدم اذن فى الشرق بأفكار جديدة ، بينما هو فى الغرب قد اصطدم باناس جديدين فحسب(٦٥)» ولاغرو أن تقوم الشام والعراق ـ وأعاليهما

---

(٦٣) Gaudefroy-Demombynes, Platonov : Le Monde Mus. et Byz. p. 326.

(٦٤) جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ١٢ ، ١٤ ، ٤٠٦ ـ ٧ ٠

(٦٥) كارل هينرش بكر : تراث الأوائل فى الشرق والغرب ـ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٦ ٠

http://al-maktabeh.com

بوجه خاص ـ بدور هام فى عمليات الامتزاج الحضارى والتبادل الثقافى من قديم ، بحكم موقعهما الجغرافى الذى ييسر لهما الاتصال بما حولهما ، وقد تحقق هذا الاتصال على مدار التاريخ • والمؤرخ الفيلسوف توينبى يرى الحضارة الاسلامية مؤلفة من اتحاد مجتمعين شقيقين : هما المجتمع الايرانى والمجتمع العربى ، وان هذين المجتمعين يرجعان فى نسبهما عبر ألف عام من الحقبة الهيلينية فى الشرق الى أصل الحضارة السريانية القديمة ، ويرجع التعقيد الذى يتصف به تاريخ المجتمع السريانى ـ أصل الحضارة الاسلامية فى نظر توينبى ـ الى ما خالطه وشاع فيه من العناصر الأشورية والهيلينية الدخيلة • ولكن توينبى يحاول رغم ذلك التعقيد أن يعرفه بقوله : « عندما نرد المجتمع السورى الايرانى Syro-Iranian أو السريانى Syriae الى أصله نجد ان **سوريا هى موطنه الاصلى** ، وان الفينيقيين والفلسطينيين والاسرائيليين والآراميين ـ هم شعوبه السورية(٦٦) » • وقد كان لمنطقة شمال الشام والجزيرة دورها الثقافى فى عالم الفكر اليونانى قبل الاسلام ، فنحن نقرأ فى القرن السادس الميلادى عن الفيلسوف النصرانى يوحنا الابامى ـ نسبة الى Apamea ( أفامية أو فامية فيما بعد ) والطبيب الفيلسوف سرجيوس الرأس عينى ( نسبة الى رأس عين ) ، والطبيب ايتيوس Aetios الآمدى(٦٧) •

واستمرت هذه المنطقة تؤدى دورها الحضارى فى ظل الدولة الاسلامية ، وقد روى ان الحجاج سأل زادان فروخ عن العرب فى الامصار فقال عن أهل الشام « نزلوا بحضرة أهل الروم •• فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم وشجاعتهم(٦٨) » •

## ( أ ) الاتصال الثقافى فى مدن الحدود :

انتقلت الحضارة الاغريقية زمن سيادة الاغريق والرومان الى الشام والعراق ، ثم امتزجت مع المسيحية واعتنى أهل الشام بها ، فترجموا فى الاديرة ما يتعلق بالدين والدنيا • واستمرت الحياة الفكرية فى القسطنطينية وآسيا الصغرى والشام ومصر والمغرب فى نفس اتجاهها قبل المسيحية ، بحيث يمكن القول ان حوض البحر المتوسط كانت تسوده

(٦٦) منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ص ٥٧ : ٩ •
(٦٧) ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ـ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٤٣ •
(٦٨) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨ •

http://al-maktabeh.com

قبل الاسلام ثقافة اغريقية لاتينية غلب عليها الروح المسيحي . وقد كان الفكر في العالم البيزنطي وثيق الصلة بالاصول الاغريقية القديمة ، ومن هنا « لم تختف طلاوة الفكر الاغريقي ونقاؤه ، بل فتحا لنشاطهما ميدانا جديدا ، لقد انتقلت خصائص ذلك الفكر اليوناني من ميدان الفلسفة الوثنية الى ميدان اللاهوت المسيحي، والى هذا الميدان الجديد نقل مشاكله ومعاركة القديمة » على حد تعبير مارشال F.H. Marshall . وفي كل نواحي الانتاج الفكري البيزنطي نجد الصور القديمة نماذج يحتذيها الناس فيما يكتبون من أدب مسيحي ، والمسافة قريبة جدا بين زوزيموس Zosimus آخر أعلام المؤرخين الوثنيين وبروكوبيوس مؤرخ جستنيان المسيحي . بل ان الفكر السرياني الذي بلغ أوجه في القرن السادس الميلادي كان يحمل بوضوح طابع الفكر الاغريقي القديم ، فقد نهج يعقوب السروجي وفيلوكسين المنبجي ويوحنا الايسوري ويعقوب البردعي السريان المسيحيون على نهج قدماء الاغريق وفلاسفتهم . وأخرجت سوريا نفرا من أعلام الفكر اليوناني المسيحي مثل بروكوبيوس من قيصرية الشام ، ويوحنا مالالاس من انطاكية ، وبروكوبيوس الغزي ، ودوروتيوس واناتوليوس القانونيين من بيروت، **وقامت مدارس الطب في الرها وحران وانطاكية** على ترجمة مؤلفات أطباء الاغريق الى السريانية . ووجد النساطرة الذين اضطهدتهم الامبراطورية البيزنطية لأنفسهم مأوى عند الفرس ، وفي سنة ٣٥٠ م أسس كسرى أنوشروان مدرسة في **جند يسابور** بغربي فارس لدراسة الطب والفلسفة . وواصلت حران نشاطها الفلكي . (٦٩) . وقد انتشرت المدارس خلال الشرق الروماني ، ومن ذلك قيصرية في كابادوكيا وقيصرية الجديدة ناحية بنطس ومنها مدارس في قيليقية وبامفيليا . وكانت الاسكندرية مركز الدراسة لاقليم الجنوب ، كما جدت معاهد في قيصرية بفلسطين وحمص على الحدود العربية ، وفي القرن الخامس ذاع في الشرق صيت بعيد لمدرسة الخطابة المسيحية في غزة بينما كانت **انطاكية وافامية وخلكيس وحمص** في سوريا تفخر باساتذتها المشهورين. والى انطاكية ينسب الخطيب المشهور ليبانيوس المتوفى سنة ٣٩٣ م ، والمؤرخ اميانوس مارسلوس ( ٣٣٠ : ٤٠١ م ) الذي كان جنديا لمع في

---

(٦٩) هل : الحضارة الغربية – ترجمة دكتور العدوى ص ١٠٦ ، دكتور مؤنس : المسلمون في البحر المتوسط – المجلة التاريخية المصرية م.٤ ع ١ مايو سنة ١٩٥١ .

http://al-maktabeh.com

معارك غالة وبين النهرين أكمل تاريخ تاسيتوس واحب انطاكية وفاخر بها . (٧٠) .

**ودخلت فى رحاب الدولة العربية هذه المراكز الثقافية الزاهرة :** مثل انطاكية فى الشام وقيصرية وغزة فى فلسطين ، ثم الاسكندرية بوجه خاص ، وصارت بكتابها ومدارسها ومتاحفها وبيئتها العامة المشبعة بالحياة الفكرية القوية والتقاليد الهيلينية القديمة ـ جزءا من الدولة الاسلامية . وأصبحت للثقافة الاغريقية أثرها الكبير فى الحياة العقلية العربية . وازدهرت الرها المركز المسيحى ، وحران المركز الوثنى، وانطاكية المستعمرة الاغريقية القديمة كثيرة العدد ، والاسكندرية ملتقى الفلسفتين الشرقية والغربية ، وغير ذلك من المراكز الشامية والعراقية التى لا حصر لها والتى كانت تدرس فيها العلوم والفلسفة بجانب البحوث الدينية . **ولقد كانت الغارات المختلفة على ارض الروم ونجاحها فى أيام الرشيد سببا فى حصول العرب على كثير من المخطوطات اليونانية، وبخاصة من عمورية وانقرة** Ancyra وكانت الثقافة الهيلينية الارث المشترك الذى استطاع ان يقرب ما بين بيزنطه ودولة الخلافة بعد فتح العرب للشام ومصر ، ولكن العرب كانوا لا يعرفون اليونانية ، وكان عليهم فى مبدأ الامر ان يعتمدوا على الترجمات التى يقوم بها رعاياهم من غير المسلمين وبخاصة النساطرة . ولقد أصبح هؤلاء النساطرة الذين ترجموا أولا الى اللغة السريانية ومنها الى العربية حلقة الاتصال بين الفلسفة الاغريقية والاسلام . (٧١) وفى ظل الحكم الاغريقى ـ كانت الطبقة الحاكمة الاغريقية فى سوريا تتكلم اليونانية وكانت الآرامية هى اللغة العادية فى سوريا والعراق ـ وهى لغة قريبة الى العربية ولكنها تغايرها . والآرامية عموما لغة المرتفعات الشمالية والاقاليم الداخلية ، فى حين استعملت العبرية فى المنخفضات واقتربت من اللغة الفيقية المستعملة على الساحل . وتشبعت الآرامية الى مهجات كثيرة وانتشرت فى منطقة كبيرة ، وانتشرت احدى لهجاتها أو مجموعة من لهجاتها فى وقت متأخر بين السكان المسيحيين فى سوريا والعراق متخذة الرها مركزا لها ، وعرفت بالسريانية ، « **وكانت هذه السريانية**

---

(٧٠) Byzantium بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٢٠٨ ، رستم : الروم ج ١ ص ١٥٠ ـ ١ .

(٧١) فازيلييف : بيزنطة والاسلام ـ ملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٦٠ ، ٣٧٤ حتى : تاريخ العرب . ترجمة نافع ج ٢ ، ص ٣٨٥ ـ ٦ .

http://al-maktabeh.com

**الارامية ـ على حد تعبير اوليري ـ هى الطريق الرئيسى الذى عبرته الثقافة الاغريقية الى شعوب الشرق الادنى »** . وظلت سوريا قرونا تحت سلطة السلوقيين ( السليوكيين ) الاغريق فصرفت الشئون العامة بالاغريقية ، « وكان هذا ( التهلين ) سطحيا من غير شك ، ولكنه ترك طابعا خاصا . ثم أتى الحكم الرومانى فلم يجلب معه ثقافة جديدة ، ولكنه قوى النفوذ الاغريقى الموجود بالفعل . واخيرا جاءت الكنيسة المسيحية ، فكانت أكثر أغريقية فى نفوذها مو السلوقيين أو من الدولة الرومانية . ولقد وضعت الكنيسة يدها فى يد الدولة الرومانية بعد أيام قسطنطين » وتم الاعتراف بأولية كنائس روما وانطاكية ثم بعد بعض التردد بالاسكندرية ، ولأسباب عاطفية أعطيت كنيسة بيت المقدس ( أورشليم ) مرتبة مماثلة ولو أنها فى الحقيقة كانت تتبع انطاكية . وكانت الكنيسة المسيحية فى عهدها الأول « قوة تهلينية » فى جوهرها على حد تعبير أوليرى « فكانت الاغريقية لغتها ، وكان انتشارها الاول بين هؤلاء الذين تكلموا الاغريقية وعاشوا على النمط الاغريقى ... ولقد استعملت المسيحية اللغة الاغريقية حتى فى روما نفسها » . ويبدو أن الرغبة فى السلامة من التعرض للاضطهاد أدت الى الاتجاه الى تكوين كنيسة مزدهرة فى بين النهرين خارج حدود الامبراطورية الرومانية ، وهذه الكنيسة الواقعة فى منطقة الرها وما حولها عاشت حياتها الخاصة، وكانت أكثر من أى شىء آخر هى التى احدثت تهلين هذه المنطقة عبر الحدود . وكانت كنيسة بين النهرين عبر الحدود تعتبر داخلة فى ابرشيه انطاكية ولكن اسقفها فى وقت اسبق كان يحمل لقب كاثوليكوس « وحيث تكونت الكنيسة هكذا نموذجا للامبراطورية الرومانية هيأت المجتمعات المسيحية للنمط الهيلينى ، لا فى العراق فحسب بل كذلك فى فارس . وهذه الانماط مطبقة على النظم الاجتماعية ـ هيأت الطريق للثقافة الاغريقية » . (٧٢) .

وفى أخبار سنة ٢٦٩م أن من تولى تفنيد أضاليل بولس السميساطى هو ملكيون ( رئيس مدرسة العلوم اليونانية فى انطاكية ) . وفى سنة ٢٩٠ م اتفق لوقيانوس السميساطى الاصل ودور وثاوس وبعض رجال الدين على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها . كما يذكر أن يوسطانيوس أسقف **انطاكية** أسس مدرسة بها

---

(٧٢) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ـ ترجمة دكتور تمام حسان ص ١٠ ، ١١ ، ٢٦ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ : ٧ .

http://al-maktabeh.com

يقلد مدرسة الاسكندرية الكبرى بعـــد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م « وقد أصبح ديودوروس أسقف طرســوس ( المتوفى ســنة ٣٩٣م ) وتيودور أسقف موبسيوستيا ( المصيصة ) ( المتوفي سنة ٤٢٩م ) فى التقدير العام قادة علماء اللاهوت فى الكنيسة السورية التى تكلمت الاغريقية وتبعت انطاكية ، واعتبرت كتاباتهما بالاغريقية حصون العقيدة فى سوريا وكانت هناك منافسة بين انطاكية والاسكندرية ... » واشــتهر من الادباء الانطاكيين يوحنا الذهبى الفم المتوفى سنة ٤٠٧م والذى نفى فى ثنايا جبال طوروس ثم بلاد بنطس . **وهكذا أصبحت انطاكية العاصـمة الفكرية لسوريا الشمالية** . وقد تعلم فيها آريوس ونســـطوريوس كلاهما . وكانت الدروس فى انطاكية تستمر فى أشهر الشتاء والربيع ويخصص الصـيف للاحتفالات والاعيـاد . وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهج المدرسى ، وكان للمنطق أهمية وحظى أرسطوبمكانة خاصــة ويجمل الدكتور رســتم الطابع الفكرى لمدرسة انطاكية بقولة « كانت مبادىء مدرسة انطاكية توجب فى كل موضوع بساطة فى المنهج، وكمالا فى الايضاح ، وادراكا فى تعليم الايمـان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدســة فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد أرسطو أكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية ( ولهذا السبب تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت والناسوت فى شخص المسيح الواحد ... ) » وكانت بيروت المدينـة الوحيدة من بين مدن سوريا البيزنطية التى نافست انطاكية فى الزعامة الفكرية وذلك لوجود مدرسة الحقوق بها . وقد وصلت هذه أرقى مراحلهـا فى القــرن الخامس الميـلادى عندما اجتذبت بعض المفكرين المتازين فى الامبراطورية البيزنطية .

وقد أسس الاسقف يعقوب مدرسة فى **نصيبين** تلت انشاء مدرسة انطاكية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وكان غرضها نشر اللاهوت الاغريقى بين المسيحيين الذين يتكلمون الاغريقية . غير أن هذه المدرسة تعرضت للمتاعب ، ثم ضاعت أخيرا حين سقطت نصيبين فى يد الفرس ســنة ٣٦٣م . وعاود رئيسها افرام السريانى عمله فى **الرها** ، فكان هنـاك اتصال طبيعى بين جهود المدرستين ، حتى **أن مدرسة الرها ربما اعتبرت بعثا لمدرسة نصيبين** . وأول من ورد ذكره من طلاب الرها لوقيانوس ، ثم يوسيبيوس الرهاوى أسقف حمص المتوفى سنة ٣٥٩م . وفى أواخر القرن الرابع الميلادى تتابعت اعمال الترجمة من الاغريقية الى السريانية، ووصل نسطور تلميذ مدرسة انطاكية الى كرسى بطريركية القسطنطينية

http://al-maktabeh.com

سنة ٤٢٨م . وحدث الانشقاق الشهير نتيجة جدل فى طبيعة العذراء : هل هى ام للمسيح بطبيعته الجسدية أم بصفته الالهية ؟؟ وتزعمت الاسكندرية المعارضة ضدنسطور الذى كان يرى فى العذراء (والدة المسيح) لا ( أم الاله ) لانها ولدت انسانا لا اله اللاهوت ، وهى ( قابلة ) الآله لا غير . ونجحت الحملة ضد نسطور وانتهت بعزله ، لكن ايدته مدرسة الرها . وتعرض النساطرة لاضطهاد الروم ، واغلق الامبراطور زينو مدرسة الرها سنة ٤٨٩م . وهاجر المعلمون النسطوريون من الاراضى المسيحية الى بلاد الفرس ، وكان قد سبقهم الى الهجرة برصوما رئيس المدرسة فقابلهم واغراهم **بالاقامة فى نصيبين حيث افتتحوا مدرسة نسطورية خالصة** . « **وقد جاءت هذه المدرسة سليلة مباشرة لمدرسة نصيبين** ، وأصبحت فيما بعد جامعة مركزية عظيمة للمجتمع النسطورى » . واستطاع برصوما ان يكسب ثقة الملك الفارسى فيروز الذى علم بقدرته على مفاوضة الرومان « فأطلعه على تحصينات الحدود ، ثم بعث به فى مهمة لتفتيش الحدود مع المرزبان الفارسى ( dux عند الرومان ) وملك العرب . ويجب ان يكون هذا قد حدث قبل صيف سنة ٤٨٤م حين مات فيروز » . وهكذا لعبت مناطق الحدود دورا خطيرا فى الحركة الثقافية بين الفرس والروم « **ويبدو التحويل الدائم للثقافة الاغريقية ــ فى صورة سريانية معدلة ــ من الرها عبر الحدود الفارسية الى نصيبين** ، حيث انتشرت فى النهاية الى المجتمع النسطورى ووصلت الى العرب . وانها لحلقة واضحة فى سلسلة النقل ، ولكنها حلقة قد كادت تنكسر فى بعض الاحيان ، ثم تجددت » . وانتشر النشاط التبشيرى النسطورى فى الاقاليم المحيطة ، حتى امتد الى الجنوب الغربى فى بلاد العرب قبل وقت طويل ، ثم الى الشرق عبر آسيا الوسطى حتى الشرق الاقصى . ويبدو ان كثيرا من نصارى الحيرة كانوا على المذهب النسطورى واستعملوا السريانية فى صلواتهم . وتقدمت البعثات النسطورية الى الجنوب حتى وادى القرى ــ الواقعة الى الشمال الشرقى من المدينة ــ وكانت معسكرا لحامية رومانية لم يكن جنودها من الرومان ولكنهم كانوا من المرابطين من قبائل قضاعة ، وكان معظم هذه القبائل من النصارى أيام النبى . على أن الثقافة الاغريقية لم تنتقل الا عن **طريق جند يسابور** ، فقد كان كسرى الاول ( ٥٣١ : ٥٧٨م ) رغم حربه للروم معجبا بالثقافة الاغريقية الرومية ، فأكرم الفلاسفة الذين طردوا على أثر اغلاق مدرسة اثينا أيام جستنيان ، **وأنشأ مدرسة جنديسابور** على نهج مدرسة الاسكندرية الذى كان قد اتبع فى حمص

http://almaktabeh.com

أيضا . وكان فى جنديسابور عند انشائها كمخيم للسجناء مواطنون يتكلمون الاغريقية وآخرون يتكلمون السريانية ، وينبغى أن يكون بعض السكان قد استعمل الفارسية كذلك ، ويبدو أن الأغريقية قد أهملت بطول الوقت وجرى التدريس بالسريانية كما كان الحال فى نصيبين وفى المدارس النسطورية الاخرى وان كانت دراسة الاغريقية كلغة قد استمرت.(٧٣) وظهر فى تاريخ الكنيسة اليعقوبية «القائلة بالطبيعة الواحدة لكلمة الله المتحدة» اعلام من منطقة الجزيرة مثل يعقوب السروجى أسقف حورا من ابرشية سروج (٥٠٢ ــ ٣م) وفيلوخينوس من تلاميذ مدرسة الرها مضارضى النسطورية ونصف أسقفا على هيروبوليس (منبج) ، ومارا أسقف آمد الذى كان من الذين طردهم جستنين سنة ٥١٩م ونفى مع ايسيدور اسقف قنسرين الى بطره ( البتراء ) . وكان يوحنا الافتونى John of Aphtonia من المضطهدين فى عهد جستنين ، وكان رئيسا لدير القديس توما فى سلوقية ، فلما طرد من ديره **انشأ ديرا آخرا فى قنسرين بجانب الرها** (( وازدهر هذا الدير فى بداية القرن السابع بدراسة الاغريقية وغشيه كثير من أحبار اليعاقبة ، ولم يكن لليعاقبة مدرسة قط كمدارس النساطرة نصيبين وجنديسابور ــ ولكن هذا الدير كان مركزا ثقافيا لا يقل عن هذه المدارس . وصارت المراكز الكبرى للدراسات اليعقوبية فى **اديرة مارمتا ثم طور عابدين على الفرات الأعلى الذى يعتبر أكبر دير فى العراق ثم قنسرين بقرب الرها** وكثيرون من المطارنة كانوا بين خريجى الدير الاخير » . وقد أرسل جستنيان يوحنا الافسوسى أو الآسيوى الراهب الذى كان قد هرب من ديره توقيا للاضطهاد الى آسيا الصغرى لتبشير الوثنيين حول أفسدوس ، وقد لقى يعقوب البرذعى فى القسطنطينية . واشتهر عالم سريانى فى العصر المتأخر هو سيفيروس سيبحت أسقف قنسرين ( المتوفى ٦٦٦ ــ ٧م ) وقد كتب فى موضوعات لاهوتية ومنطقية وفلكية . ويبدو أنه اتجه لنقل الارقام الهندية . « ولقد كان اليعاقبة مجدين وناجحين فى التبشير فقطعوا الصحراوات فى حمية بنى غسان ، وكانت ادباين وبيت عربايا مما حول طور عبدين منطقة يعقوبية وكذلك **ارمينية** والمنطقة التى حول جبل عزلا M. Izla الى الشمال قليلا من نصيبين،

---

(٧٣) اوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ــ ترجمة تمام حسان ص ٦٩ : ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ : ٩ ، ٨٤ : ٦ ، ٩٠ ، ٩٩ : ١٠١ ، رستم : الروم جـ ١ ص ١١٣ : ٩ ، ١٢٣ : ٥ ، ١٤٩ : ١٥٤ ، ١٦٢ : ٣ ، حتى تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة دكتور حداد ورافق ص ٣٩٤ : ٦ ، ٣٩٩ .

http://al-maktabeh.com

وكانت مدينة شيســـار Shissar مركزا يعقوبيا آخر ... وفى عهد جستنيان أرسلت الامبراطورة تيودورا مبشرا يعقوبيا الى أكسوم ، وقد شغلت اكسوم مكانا هاما فى السياسة البيزنطية أيام جستنيان . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ ملك اكسوم يحاول بسط نفوذه على الشواطىء الجنوبية لبلاد العرب . وكان فى مكة كثير من العبيد والصناع الاحباش ومعظمهم كان مسيحيا من اليعاقبة .وكانت نجران مسيحية على المذهب اليعقوبى . وليس من الممكن أن نسمى مركزا يعقوبيـا يدعي انه نقل الثقافة الاغريقية بنفس الثقة التى تصـحب تسميتنا المركز النسطورى فى جند يسابور ، لكن هذا الاتصال لا يصح ان يتجاهل . حقيقة أن المـراكز التعـليمية اليعقوبية كانت اديرة وليســت مدارس كمدرسة جند يسابور ولم تكن لهذا واضحة الاتصال بالعرب كالمدرسة النسطورية ـ ولكنها كانت على اتصال » . (٧٤)

***

وحكم الاســلام هذه المنطقة التى ازدهرت فيها الثقافة اليونانية والنظم الرومانية ، وكانت الشـام قاعدة الحـكم الاموى حيث كانت دمشق العاصمة الرسمية مدينة لا تخلو من آثار الطابع الاغريقى وان لم تكن ذات صبغة هيلينية تامة كما كانت انطاكية ، وكانت مقر الاساقفة المسيحيين الذين كانوا بعد بطارقة انطاكية من حيث التدرج الاكليروسى. وقد كانت بها مدرسة ذات شهرة فى وقت الفتح العربى ، ولكنها لم تبلغ درجة مدرسة الاسكندرية ولا انطاكية واستبقت هذه المدرســة سمعتها بعد الفتح . وقد بدت آثار الفكر الاغريقى على الفكر العربى فى الشـام والعراق ، وربما وجدت هذه الاثار فى أكثر من منطقة واحدة منهما ، وربما انتشرت من منطقة الى أخرى . (٧٥) .

**وصار العرب ورثة الفكر اليونانى ، ولعب السريان دور الوسيط فى نقل هذا التراث** اذ كانوا على اتصال باليونان لاكثر من عشرة قرون ، وكان علماؤهم فى القرنين السابقين لظهور الاسلام يعملون جاهدين فى نقل المؤلفات اليونانية الى السريانية . وهكذا فان الذين اتاحوا كنوز اليونان العلمية والفلسفية للفرس من قبل ، أصبحوا الآن يؤدون هذه الخدمة نفسها للعرب . (٧٦) ويذكر الفـارابى والمســعودى وابن أبى

---

(٧٤) أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب . ترجمة دكتور تمام حسان ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٣٢ ـ ٣ ، ١٣٦ ، ١٣٨ : ١٤٢ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٢١٠ ، ٢١٦ ـ ٧ .

(٧٦) حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٧٤ ـ ٥ .

http://al-maktabeh.com

أصبيعة نبأ **انتقال مدرسة الفلاسفة والاطباء من الاسكندرية ـ اذا حسبنا أنه لم يكن غير مدرسية واحدة هناك ـ الى انطاكية وحران فى** عهد عمر بن العزيز . ويحاول ما يرهوف تعليل هذا الانتقال بقوله « ... من بين الأسباب : تلك العزلة التى أصبحت الاسكندرية فيها منذ فتح العرب ، فقد فصلت عن بيزنطة بسبب حروب البحر المستمرة ، وكان لا مناص من ان تذهب عنها أهميتها الثقافية والاقتصادية منذ اصبحت دمشق مركزا لادارة الامبراطورية الاسلامية الجديدة ... وعلى كل حال فلابد ان يكون العلماء الذين يعرفون اليونانية قد تناقص عددهم ، ولابد ان حركة الترجمة الى السريانية التى بدأها بعض العلماء الاسكندرانيين فى القرن السادس الميلادى قد أصيبت بشلل كبير . ومن أجل هذا كان طبيعيا جدا ان تنتقل المدرسة الى الشرق الادنى فى المنطقة التى تتكلم السريانية . وليس فى الروايات مايدلنا على ان الخليفة عمر بن عبد العزيز نفسه قد اشترك فى نقل المدرسة أو كان السبب فى هذا الانتقال ... ولسنا نفهم كذلك لماذا أصبحت انطاكية الموطن الجديد للمدرسة ، نعم كانت هذه المدينة مركزا للثقافة العلمية اليونانية ، الا انها عانت الكثير من الاحداث فى القرون الاخيرة قبل أن يستولى عليها العرب ( ١٧ هـ ـ ٦٣٨م ) ، فقد خربها غزو الفرس وخربتها الزلازل ، ونظرا لوقوعها على الحدود القلقة بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية العربية بقيت فى العصر الاسلامى موضع نزاع مستمر . ومع هذا فلست أرى من غير الممكن ان تكون قد اختيرت ، **لأن هذا الموقع نفسه قد جعل من السهل احضار المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى لأن حركة التبادل كانت نشيطة دائما على الحدود فى الفترات الخالية من الحروب** . وكان القوم يجدون فى البحث عن امثال هذه المخطوطات ـ كما تبين لنا من كلام لحنين بن اسحق ، وذلك من أجل ايجاد مكتبة أو من أجل اكمال المكتبات القائمة من قبل . ومن المؤكد ان العناية فى المدرسة الحديثة اتجت الى الترجمة الى السريانية ... ثم ان مصادرنا الثلاثة تتفق فى ان مجلس التعليم قد انتقل من بعد من انطاكية الى حران ، وهذا الانتقال اسهل فى الفهم من انتقالها من الاسكندرية الى انطاكية لأن مدينة **حران تقع فى وسط منطقة الثقافة اليونانية فى المنطقة التى تكلم أهلها اللغة الارامية الشرقية ، وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال** ، حتى أن آخر الخلفاء الامويين وهو مروان الثانى نقل مركز الخلافة أحيانا اثناء مدة خلافته اليها بالعراق الأعلى . وكانت الدراسات اليونانية متقدمة منذ زمن بعيد فى المنطقة كلها ( كانت حران تسمى هلينوبوليس ـ مدينة اليونانيين )

http://almaktabeh.com

وكان القائمون بها من النصارى والوثنيين على السواء • ويبدو ان المدينة كانت على صلة ببعث الثقافة الذى اثر فى الكنيستين النسطورية واليعقوبية ... وكتاب التنبيه يحدد الزمن الذى انتقلت فيه مدرسة انطاكيــة فيقول ان ذلك كان فى خــلافة المتوكل ( ٢٣٣ ، ٢٤٧ هـ ) ( ٨٤٧ : ٨٦١م ) فتكون المدرسة قد بقيت فى انطاكية ١٣٠ أو ١٤٠ سنة تقريبا قبل ان تنقل الى حران • (٧٧)

## (ب) الاتصال الثقافى عن طريق الاسرى :

كانت الحروب بين المسلمين والروم متواصلة « وتقع الاسرى من كل من الجــانبين فى يد الاخــر ، فأسرى المســلمين قد يذهبون الى القسطنطينية واسرى الروم الى العراق • والحكايات كثيرة فى التاريخ عن النوعين من الاسارى وخاصة فى عهد الرشيد ، فكان هذا سببا من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعيــة واقتبــاس كل من كل • وليس من المعقول ان يمر هذا الاتصال ــ بحكم الروم لكثير من البلاد الاسلامية أولا ، ثم بالرق والاسر ، ثم باحتكاك الدائم السلمى أحيانا والحربى احيانا ــ من غير أن يترك بعضا من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضا من الرومانيين يتكلمون العربية • فالــرقيق الرومى مثــلا فى البيوت كان يتكلم الرومية أولا بالضرورة ، ثم يتكلم العربية محرفة ، ثم العربية القريبة من الصحيحة ، وهكذا الشأن فى أسرى المسلمين فى الروم ان استقروا • وهذا يحمل بعض الافراد الراقين من الجانبين على ان يتبادلوا الآراء والافكار والكلام فى اللغة والادب • ويروى صاحب الاغانى فى ذلك خبرا طريفا فيقول : قدم رسول لملك الروم الى الرشيد فسال عن أبى العتاهية وانشده شيئا من شعره ، وكان ــ أى الرسول ــ يحسن العربية ، فمضى ــ الرســول ــ الى ملك الروم وذكره له ، فــكتب ملك الروم اليه ورد رسوله يسال الرشيد ان يوجه بأبى العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد ــ والح فى ذلك ، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى ذلك فاستعفى فى منه واباه » (٧٨) •

ويروى المقدسى صورة لمعيشة اسرى المسلمين فى بلاد الروم فيقول :

---

(٧٧) مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ــ من كتاب دكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ٦١ : ٧١ ،
اوليرى :مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب • ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٥٨ •
(٧٨) احمد امين ــ ضحى الاسلام ص ٢٧٩ ــ ٨٠ •

http://al-maktabeh.com

« اعلم ان مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر ، شرط على كلب الروم بناء دار ازاء قصره فى الميدان ينزلها الوجوه والاشراف اذا اسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده . فاجابه الى ذلك ، وبنى دار البلاط ... ولا يسكن دار البلاط من المسلمين الا وجيه فى اجراء وتعاهد وتنزه ، وسائر الاسارى من عامة المسلمين يستعبدون ويستعملون فى الصنائع ، فالحازم الذى اذا سئل عن صنعته لم يقر بها ، وربما اتجر الاسارى بينهم وانتفعوا . ولا يكرهون احدا على آكل لحم الخنزير ، ولا يثقبون انفا ولا يشقون لسانا . ومن دار الكلب الى دار البلاط حبل ممدود فيه صورة فرس من نحاس ، ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب واسم الملك وينطوا واسم الوزير براسيانا ، فاذا أرادوا ان يتفاءلوا فى لعبهم صاروا حزبين وأرسلوا الخيل حول الدكة : فان سبقت خيل حزب الكلب قالوا ، ستكون الغلبة للروم فصاحوا وينطوا وينطوا ، وان غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين فصاحوا براسيانا براسيانا : وذهبوا الى المسلمين فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم » . (٧٩) وهذه الصورة التى ينقلها المقدسي لا شك ان مصدرها رواية احد الاسرى ، وهى تنبىء عن فرص للاتصال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين والروم كان يتيحها الاسر للفريقين .

وقد روى المسعودى فى ثنايا كلامه عن فداء الأسرى الذى حدث فى عهد الواثق فى المحرم سنة ٢٣١هـ « والملك على الروم ميخائيل بن توفيل ، وكان القيم به خاقان الخادم التركى » : **أن من بين من أطلق فى هذا الفداء من أسرى المسلمين لدى الروم مسلم بن أبى مسلم الجرمى « وكان ذا محل فى الثغور ، ومعرفة بأهل الروم وأرضها** ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، واوقات الغزو فيها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم (٨٠) » . ومن علم هذا الاسير الجليل استمد ابن خرداذبة قائمته لبنود الروم وذكر أن مسلم بن أبى مسلم الجرمى قال : ان أعمال الروم التى يوليا الملك عماله أربعة عشر عملا (٨١) .. الخ » .

---

(٧٩) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٧ ــ ٨ .

(٨٠) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .

(٨١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٥ .

http://al-maktabeh.com

وقدم القسطنطينية عن طريق البحر مكبلا فى قيود الاسر **هارون بن يحيى** فى زمن باسيل الاول ( ٨٦٧ : ٨٨٦م ) أو الاسكندر (٩١٢ : ٣م)، فوصف ما رآه من أبواب المدينــــة والبذرون ( Hippodrome الهبدروم ) والقصر الامبراطورى ، واستلفت نظره الأرغن الذى سـمعه هناك ، ووصف موكب الامبراطور المهيب الى كنيسة أيا صوفيا ، كمـا وصـف تمثال جستنيان وقناطر المياه وبعض الأديرة حول القسطنطينية . وفى طريقه من القسطنطينية الى روما زار سالونيك . وقد أعطى وصـــف هارون مادة طيبة لطبوغرافية القســـطنطينية واحتفـالات البـلاط والاحتفالات الدينية (٨٢) . وقد روى ابن رسته صورة السباق « وعلى غربى الميدان مما يلى باب الذهب بابان يسوقون الى هذين البابين ثمانية من الخيل ، وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة اربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد البســا ثيابا متوجة بالذهب ... فايها سبق صاحبها القى اليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون » كذلك روى ابن رستة صورة خروج الملك الى الكنيسة العظمى « ... ثم يقبل الملك ... وخلفه الوزير ... كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم من رمونت ، وتفسيره اذكروا الموت ... فيسير كذلك حتى ينتهى الى باب الكنيسة ، فيقدم الرجل الطست والابريق ، فيغسل الملك يده ويقول لوزيره : انى برىء من دماء الناس كلهم ، لأن الله لا يسألنى عن دمائهم وقد جعلتها فى رقبتك ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويأخذ دواة بلاطس ــ وهى دواة الرجل الذى تبرأ من دم المسيح ــ ويجعلها فى رقبة الوزير ... وعلى الباب الغربى من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون بابا صــــغارا كل باب شبر فى شبر ... معمولة على ساعات الليل والنهار ، فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها واذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها » وابن رستة يعتمد على هرون بن يحيى فيما يقدم من معلومات « وذكر هرون ان حوالى قسطنطينية ديارات الرهبان ، وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا ينزله خمسمائة راهب (٨٣) » .

---

(٨٢) فازيلييف : بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium مترجم وملحق بترجمة كتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية للدكتور مؤنس وزايد ص ٣٧٧ : ٨ .

(٨٣) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ١٢٠ : ١٢٧ .

http://al-maktabeh.com

## (ج) السفارات العلمية :

واذا كان المسلمون لم ينسوا خلال غاراتهم على البيزنطيين ـ خاصة زمن الرشيد ـ أن يحاولوا الحصول على مخطوطات يونانية من مدائن العدو مثل عمورية وأنقرة Ancyra (٨٤) ، فانهم كانوا كذلك يرسلون الرسل من قبلهم لشراء هذه المخطوطات اليونانية الموجودة في الامبراطورية البيزنطية ـ زمن الرشيد أيضا وبتشجيع البرامكة • « وهي سياسة سخية جاءت الى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة ، وقد الحق هذا بكرم مماثل من جانب الأفراد الذين أنفقوا بسخاء على المخطوطات والمترجمين • وكثير من المادة التي حصل عليها بهذه الطريقة كان طبيا » (٨٥) •

وفي أخبار الحكماء أن الرشيد « ولى يوحنا بن ماسويه **ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية ـ وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها** ، ووضعه أمينا على الترجمة ، ورتب له كتابا حذاقا بين يديه » • ويروى ابن النديم في الفهرست « **أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع** فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا • فلما حملوه اليه أمرهم بنقله ، فنقل ، وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم » • وجاء في سرح العيون قول ابن نباته عند الكلام على سهل بن هرون : « وجعله كاتبا على خزائن الحكمة ، وهي **كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص** • وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد •• فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازنة لها » • وروى كذلك أن **المأمون أرسل الى صقلية أيضا في طلب الكتب اليونانية** • وقد ذهب حنين ابن اسحق الى بلاد الروم وأجاد تعلم اليونانية ثم عاد ، وأخذ يرحل في نواحي العراق والشام والاسكندرية يجمع الكتب النادرة (٨٦) •

---

(٨٤) حتى : تاريخ العرب ـ ترجمة نافع حـ ٢ ص ٣٨٥ •

(٨٥) أوليرى مسالك الاغريقية الى العرب ـ ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٢٨ : ٩

(٨٦) احمد أمين : ضحى الاسلام حـ ٢ ص ٦١ : ٣ ، ٧٩ ، دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ٢ ص ٢٥٧ •

http://al-maktabeh.com

وهكذا استمر الاتصـــال الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين رغم الصراع الدامى المستمر وقد أرسل الوليد ابن عبد الملك ( ٨٦ : ٩٦ هـ ـ ٧٠٥ : ٧١٥ م ) الى الامبراطور البيزنطى يطلب ارسال بعض الصناع لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقـــدس بالفسيفساء • ويروى الطبرى فى أخبار سنة ٨٨ هـ أن الوليد كتب الى امبراطور الروم للمعاونة فى بناء مسجد الرسول « فبعث اليه بمائة عامل وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حملا ، وأمر أن تتبع الفسيفساء فى المدائن التى خربت فبعث بها الى الوليد » • على حد رواية الطبرى • ويروى المقدسى أن ملك الروم بعث « بأحمال وبضعة وعشرين صـــانعا ـ فيهم عشرة يعدلون مائة ، وثمانين ألف دينار ••• » • على أن الدكتور ماجد يستبعد أن يطلب الخليفة المسلم من عدوه المعاونة على بناء مسجد رسول الله ، كما يستبعد اجابة الامبراطور البيزنطى له • ويروى ابن العديم مايكشف فى جلاء كيف تخللت معارك القتال اتصالات التبادل الثقافى والحضارى « كنا معشر أهل الشام واخواننا من أهل مصر واخواننا من أهل العراق نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزا بالصغير فسيفساء وذراع فى ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق الى العراق وأهل حلب الى حلب ، ويستأجر على ماحملوا الى دمشق ، ويحمل أهل حمص الى حمص ويستأجر على ماحملوا الى دمشق ، ويحمل أهل دمشق ومن وراءهم حصتهم الى دمشق » (٨٧) •

وفى القرن العاشر الميلادى كان العالم **الرياضى البارز ليو** فى ديار الروم فى عهد تيوفيل ( ٨٢٩ : ٨٤٢م ) ، فدعاه المأمون ( ١٩٨ : ٢١٨ هـ ـ ٨١٣ ٨٣٣م ) الى بلاطه ، ولما سمع تيوفيل بذلك قرر له مرتبا وعينه مدرسا باحـدى كنائس القسطنطينية • وأرسل المـأمون رسالة شخصية لتيوفيل يطلب منه السماح بحضور ليو الى بغداد لفترة قصيرة ، وقال انه يعتبر ذلك عملا وديا ويعرض فى مقابل ذلك صلحا دائما وألفى قطعة ذهبية الا أن الامبراطور رفض العرض • وقد وصل خبر هذا العالم الرياضى الى المأمون عن طريق أحد أسرى المسلمين من تلاميذه براعة علمية حتى استثار رغبة الخليفة فى طلب رؤية أستاذه ، فكانت الدعـوة التى لفتت أنظـار

---

(٨٧) الطبرى : حـ ٨ ص ٦٥ ، العمرى : مسالك الأبصار حـ ١ ص ١٨٣ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٨١ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ١١١ ، فازيلييف: بيزنطة والاسلام ـ بحث من كتـاب Byzantium ملحق بترجمـة الدكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطيـة ص ٣٧٩ ، دكتـور ماجد : التـاريخ السياسى للدولة العربية حـ ٢ ص ١٨٥ : ٨ •

http://almaktabeh.com

الامبراطور الى ليو فى حياته المغمورة وقد ارتفع بذلك الى مرتبة كبير أساقفة سالونيك سنة ٨٣٠ م ( ٨٨ ) .

**وتذكر آيات من سورة الكهف قصة النائمين السبعة** الذين لجأوا الى أحد الكهوف فرارا من الاضطهاد فوقعوا فى سبات استغرق ٣٠٩ عاما ثم استيقظوا فوجدوا بلادهم قد دانت بدينهم . ويرى البعض أن ذلك كان فى عهد الامبراطور ديكيوس ( ٢٤٩ - ٢٥١ م ) وقد مات هؤلاء بعد اكتشاف أمرهم مباشرة فأقيم على أجسامهم بالكهف معبد قرب افسوس . ومن المعروف أن القصاصين العرب اعتمدوا على ماتضمنت سورة الكهف من القرآن الكريم من اشارات الى أصحاب الرقيم ، وأنشأوا على أساسها قصصا طويلا نجده عند بعض المفسرين والمؤرخين . ومن أمثلة ذلك ما ذكره المسعودى فى المروج : « **وقد اختلف الناس فى أصحاب الكهف والرقيم** : فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف فى لوح من حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف - وقد ذكرنا كلا الموضعين بأرض الروم . وقد حكى أحمد بن الطيب عن مروان السرخسى تلميذ يعقوب بن اسحق الكندى عن محمد بن موسى المنجم حين أنفذه الواثق بالله من سر من رأى الى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم ... وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط قصة أصحاب الكهف وموضعهم وكيفية أحوالهم الى هذه الغاية ، وخبر أصحاب الرقيم وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم ، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم وقتل من كان معه من المسلمين ، وأخبرنا عن السد الذى بناه ذو القرنين مانعا ليأجوج ومأجوج ... » .

ولاشك أنه كان هناك قصص شعبى ، أوسع لم يصل الينا ، ولكننا نلتمس شيئا من آثاره فى قصص ألف ليلة وليلة . وقد وصلت أطراف من القصص العربى حدل أهل الكهف الى الروم . وكتب عنها نيكيتاس البيزنطى الذى ألف فى النصف الثانى من القرن ٩م ، واستهوى الخليفة الواثق ( ٢٢٧ : ٢٣٢ هـ - ٨٤٢ : ٧ م ) أن يطلب مالدى الروم من تفاصيل عن هؤلاء الفتية الذين دفنوا فى أرضهم ، فوجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم « لينظر الى أصحاب الرقيم ، وكتب الى عظيم الروم بتوجيه من

---

(٨٨) فازيلييف : بيزنطة والاسلام فصل من كتاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد لكتاب بيلز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٠ - ١ ، جرونيباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٧٨ - ٩ .

http://almaktabeh.com

يوقفه عليهم ، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه من صار به الى قره ثم سار أربع مراحل ... » وقد نقل ابن خرداذبة صورة لمدفن هؤلاء « فاذا رواق الجبل على أساطين منقورة وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر ، منقور فيه الموتى . ورجل موكل بحفظهم ،ومعه خصيان روقة ، وذا هو يحيد عن أن نراه أو نفتشه ، ويزعم أنه لا يأمن من أن يصيب من التمس ذلك آفة – يريد التمويه ، ليدوم كسبه بهم . فقلت له : دعني أنظر اليهم وأنت بريء ... واذا أجسامهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، واذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أني أمررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته ... » . وقد تحدث ابن خرداذابة في موضع آخر عن هوتة الرقيم بعد بحيرة المسكنين « وهي خسف في الأرض يكون مقدار مائتي زراع في مائتي ذراع مشقوقة ، في وسطها بحيرة حولها أشجار ، وحول الأشجار في أصل الجبل بيوت ومساكن ... والقوم في مغارة يصعد اليها من أرض الهوتة بسلم لعله أن يكون ثمانية أذرع ونحو ذلك ، فاذا هم ثلاثة عشر رجلا ، وفيهم غلام أمرد ، عليهم جباب صوف وأكسية صوف ، وعليهم خفاف ونعال ، فتناولت شعرات في جبهة أحدهم فمددتها فما تبعني منها شيء » . والمقدسي يذكر عن الكهف أن « المدينة هي طرسوس وبها قبر دقيانوس وبرستاقها تل عليه مسجد قالوا هو على الكهف » . ويروى أن مجاهد ابن يزيد وخالد البريدي خرجا في سنة ١٠٢ هـ « وليس معنا ثالث من المسلمين فقدمنا القسطنطينية ثم خرجنا منصرفين الى عمورية ثم أتينا الى اللاذقية المحترقة في أربع ليال ، ثم انتهينا الى الهوية وهي جوف جبل ، فذكر لنا أن بها أمواتا لا يدرى ما هم وعليهم حراس فأدخلونا سربا طوله نحو من خمسين ذراعا في عرض ذراعين بالسروج . واذا وسط السرداب باب من حديد ومكمن لعيالهم اذا يجيئهم العرب ، واذا خربة عظيمة وسطها نقرة من ماء عرضها نحو من خمسة عشر ذراعا يرى منها السماء ، واذا كهف ذلك المكان الى جوف ذلك الجبل ، فانطلق بنا الى كهف مما يلي الجوف من الهوية ، طوله نحو من عشرين ذراعا واذا فيه ثلاثة عشر رجلا رقودا على أقفيتهم ، على كل رجل منهم جبة لا أدري من صوف أو وبر فكشفت عن وجه أحدهم فاذا شعر رأسه ولحيته لم يتغير ، واذا بشرة وجهه منيرة ودم وجهه ظاهر كأنما رقدوا تلك الساعة ... وزعم أهل الهوية أنهم اذا كان رأس كل سنة في يوم عيد لهم يجتمعون فيه ، يقيمونهم رجلا رجلا ويتركونهم قياما ويمسحونهم



http://al-maktabeh.com

وينفضون غبار ثيابهم ويسوون أكسيتهم عليهم • فلا يسقطون •• الخ »• وزار الهروى الكهف والرقيم فى بلاد الروم عند أبسوس « خربة بها آثار عجيبة قريبة من مدينة ابلستين » • ويعلق فازيلييف على رواية هذه السفارة العلمية العربية الى بلاد الروم بقوله : « اننا لا نستطيع رفض قصة هذه الرحلة التى أوردها كاتب عربى فى القرن التاسع ، لأنها صادرة عن كاتب معاصر • **فهى ترينا أنه حتى فى الوقت الذى كانت العداوات فيه شديدة متصلة بين بيزنطة والعرب ، كان من الممكن أن يقوم بينهما نوع من التبادل العلمى** وقد كان هدف البعثة منسجما مطلقا مع عقلية العصور الوسطى » (٨٩) • وقد نظم الواثق كذلك بعثة على رأسها المترجم سلام الذى كان يعرف لغات عدة الى آسيا الصغرى لكشف السور الذى بناه ذو القرنين فى وجه يأجوج ومأجوج ، وقد دامت أعمال هذه البعثة ٢٨ شهرا ، قدم سلام على أثرها للخليفة تقريرا وافيا كما يروى ابن خرداذبة والمقدسى وياقوت ، وقام الخليفة بمكافأة أفراد البعثة (٩٠) •

## (د) أدب الحرب :

قيل عن الالياذة : « ان على حسام آخيل نقش هوميروس آداب أمته » ، فكانت الملاحم فروسية وأدبا فى سجل واحد ، الأدب أداتها والحرب موضوعها • والملاحمة كما عرفها نقاد الغرب قصة شعرية لأعمال بطولية خارقة ، وقد تضم الشعر القصصى ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة • والشعر الحربى قديم فى الدهر • وقد كان يسمى الشاعر الحربى فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى مغنيا أو منشدا Aéde, Chanteur يمضى بين المدن على غرار شعراء التروبادور أوربا الوسيطة والى جانب الشعر الحربى نشأ القصص الحربى وهو روايات وقصص أكثرها النثر وأقلها الشعر •. وقد استغرب ابن الأثير فى خاتمة المثل السائر « أن لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها

(٨٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٦ ــ ٧ ، ١١٠ ــ ١١١ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٥٢ : ٤ ، العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ٢١٧ ــ ٨ ، المسعودى: مروج الذهب حـ ١ ص ١٩٥ ــ ٦ ، التنبيه والاشراف ص ١٣٣ ــ ٤ ، جرونباوم : حضارة الاسلام ترجمة جاويد ص ٤٢ : ٤ ، فازيلييف : بيزنطة والاسلام ــ فصل من كتاب Byzantium ملحق بترجمة الدكتور مؤنس وزايد بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨١ •

(٩٠) فازيلييف : العرب والروم ــ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٩ •

http://al-maktabeh.com

منظومة كالشاهنامة — على أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة فى بحرها »، وكان ابن الاثير يرى أن « العجم يفضلون العرب فى الاسهاب » (٩١) ٠

ولقد أثرت حروب المسلمين والبيزنطيين فى أدب كلا الفريقين ، ولم يبرح شعور العداء بينهما يشتد بين حين وآخر ، ونعم المسلمون بانتصارات باهرة عاشوا على ذكرياتها طويلا ، والآدب تسجيل للمشاعر والمفاخر ، أما البيزنطيون فقد كابدوا أهوال المخاطر وأوشكت امبراطوريتهم أن تنتهى تماما على يد العرب ثلاث مرات على الأقل — على حد تعبير جرنيباوم « سنة ٦٦٨ م ، ومن حوالى سنة ٦٧٣ م الى سنة ٦٧٩ — ٦٨٠ م ، وفى سنة ٧١٦ — ٧ م ٠ وكان الخطر الاسلامى ماثلا على الدوام فى مخيلة كل بيزنطى ٠٠٠ والآدب البيزنطى يعكس الينا صورة جلية لهذه الحالة ولاريب أن حرب الثغور التى لم يكن ينطفىء لها مع الروم أوار قد تركت آثارها فيما سطر العرب ولم يقتصر الأمر على أن يشيد الشعراء بمعارك لعب فيها سادتهم دورا مشرفا ، بل ان أحداثا وشخصيات تتصل بهذا الكفاح الذى لم ينته قط الى نتيجة حاسمة قد أدخلت فى القصص الشعبى — كما تشهد بذلك رواية الملك عمر بن النعمان التى أضيفت فيما بعد الى كتاب ألف ليلة وليلة — بيد أن هذه الشواهد على الاهتمام المعاصر تبدو غير ذات بال اذا قورنت بصورة تلك الأحداث عينها ، كما انعكست فى الملحمة الشعبية Epic عند البيزنطيين ٠ **فالأدب العربى لا يعوزه فحسب مؤلف من طراز وجدارة الملحمة اليونانية التى تتركز حول ديجينيس أكريتاس بطل حرب الثغور بل ان جو مناطق الثغور الخاص وطريقة الحياة فيها فى صورتها التى لا نشك أنها تطورت اليها لم يجد لسانا يعبر عنهما فى كل من الشعر والنثر العربيين** ٠ والواقع أن الأدب العربى قد أخذ اتجاهه يتحول بمرور الزمن شيئا فشيئا ويصبح أدب عواصم ٠٠٠ » (٩٢) ولعل ذلك كان أوضح ماكان أيام الحمدانيين فى قصائد المتنبى وأبى فراس ٠

لقد خلفت الاشتباكات العسكرية نموذجا لبطل قومى يتصف بالبسالة والاقدام والكرم وأصبح بعض هؤلاء الأبطال شخصيات أسطورية وهبت قوى خارقة غير طبيعية وتقوم بأعمال عجيبة ٠ وتدور ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية **ديجنيس اكريتاس** Digenis Akritas وهى من ملاحم أعمال الأبطال ووقائعهم

---

(٩١) دكتور المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العرب ص ٥ ، ١٤ ، ١٧ ٠

(٩٢) جرونيباوم : حضارة الاسلام — ترجمة جاويد ص ٢٥١ — ٢ ٠

http://al-maktabeh.com

Chanson de geste - تدور حول أعمال بطل قومى بيزنطى هو شخص حقيقى قتل فى معارك البيزنطيين مع المسلمين فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م على مايستبين فازيلييف . وقبر البطل نفسه غير بعيد عن سميساط . وهذه الملحمة وما يسمى بالأغنيات الشعبية الأكريتية - نسبة لاكريتاس - تصور الحروب بين المسلمين والبيزنطيين تصويرا رائعا ودقيقا فى حالات كثيرة ، وخاصة حروب القرن التاسع م وعندما انتصرت الجيوش الاسلامية سنة ٨٣٨ م - سنة ٢٢٣ هـ على البيزنطيين انتصارا عسكريا عظيما فى عمورية بفريجيا . وقد انتهت الابحاث فى اشــعار البطولة البيزنطية والعربية والتركية الى نتيجة هامة « وهى مسألة **الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة وبين شعر البطولة اليونانى وملحمة سيد البطال التركية - التى لم تدخل فى دائرة الشعر التركى الا بعد نقلها الى اللغة التركية وأصلها عربى** . فملحمة ديجينيس اكريتاس اليونانية مصدر غنى للمعلومات عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب » (٩٣) . ونحن نجد فى الأدب الأسبانى صورة مشابهة فى قصة السيد الكنبيطور أو القمبيطور « ومعناه صاحب الفحص واسمه لذريق » - كما يقول ابن عذارى ، فهى اذن Cámpeador من Campus وهو الفحص ومقابل اللفظ فى اللاتينية Campidoctus أى قائد الغارات فى بلاد الأعداء . ويظن أنه ولد سنة ١٠٤٥ م - أى بعد زوال الخلافة القرطبية بخمس عشرة سنة ، وقد حارب مع المسلمين وعرف لغتهم ووجد عندهم المأوى عند تشريده . ثم انقلب عليهم فى قسوة وأعمل فيهم تقتيلا وتحريقا . والعجيب أن مثل هذا الشخص قد تحول بعد موته بقرن الى شخصية أسطورية لأجمل صفات البطل القــومى الأسبانى ! ونسج القصاصون والشعراء حول حياته أروع ملاحم البطولة الأسبانية وهى قصيدة السيد El Poemadé Mio Cidh، وقد أحدثت مغامرآته دويا أعان عليه ظهوره فى فترة الصراع بين قشتالة وليون على الســيادة فى ايبريا وتزعمه القشتاليين ضد الليونيين ، وتكونت اسطورته بعد فترة بلغ فيها نفوذ غاله ( فرنسا ) أقصاه فى أسبانيا عن طريق الفرسان والرهبان الذين استعان بهم ملوك أسبانيا وأطلقوا أيديهم فى الكثير ، فضلا عن كفاحه ضد المسلمين الذى يثير الحماس ، فمضى القصاصون والمنشدون ينشئون حوله الأقاصيص والأشــعار . وقد ظهرت ( قصيدة السيد ) - احدى الأناشيد والقصائد والملاحم التى تدور حول هذه الشخصية - بعد

---

(٩٣) فازيلييف : بحث بيزنطة والاسلام من كتاب Byzantium ملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨١ : ٣ .

http://al-maktabeh.com

ملحمة رولان بأربعين سنة ، وكلتاهما أنشودة أعمال ووقائع Chanson de geste وكلتاهما من الشعر القصصي الشعبى الطويل النفس . وقد كتبها شاعر أسبانى مجهول لابد أنه قرأ ملحمة رولان وغيرها من أناشيد الأعمال الفرنسية وأنشأ قصيدة على غرارها ويغلب أن يكون هذا الشاعر مستعرب من مدينة سالم Medinaceli على الحدود بين مملكة قشتالة وامارة سرقسطة الاسلامية اذ ذاك وقد فرغ منها سنة ١١٤٠ م أى بعد وفاة السيد بأربعين عاما . وتتناول الملحمة فترات مختلفة من حياة السيد من صباه الى أواخر أيامه ، وتصور السيد بطلا محاربا شجاعا يجرى وراء الارض والمال ، ولا يغلب عليها الطابع الدينى كملحمة رولان ولا تصور المسلمين أشرارا أشقياء ، بل مدار الحديث هو الصراع بين القشتاليين والليونيين ، وان كانت القصيدة تصور السيد مسيحيا صادقا مخلصا . وتعطى القصة عن البطل صورة تختلف عن صورته فى التاريخ من نواح وتتفق معه فى نواح أخرى (٩٤) .

ويفترض الأستاذ مافروجورداتو Mavrogordato للوقائع التى دارت حولها ملحمة ديجنيس زمنا هو **القرن الواقع بين عامى ٨٦٠م و٩٦٠ م، وقد جرت احداثها فى أعالى الجزيرة بين سميساط وملطية وفى كبادوكيا ايضا** ؛ وقد نظمها الشاعر فى فترة أعيد فيها الهدوء الى حدود البيزنطيين على الفرات ، مما قد يشير الى عهد قسطنطين التاسع Constantine IX Monomachus ( ١٠٤٢ : ١٠٥٤ م ) أى أواسط القرن الحادى عشر وتشغل الملحمة مكانا خاصا فى الأدب البيزنطى ، فهى ليست صورة لصراع دنيوى بين الشرق والغرب ، فقد كان هذا شيئا غير مفهوم فى العالم البيزنطى وقد جلب بطل الملحمة الذى خلع عليها اسمه ووصفه السلام الى حدود الامبراطورية . وتمثل الملحمة باقاصيصها وأناشيدها المتشابكة نقلة فى الادب اليونانى بين العصرين الوسيط والحديث . وهى لا تتابع التواريخ البيزنطية والحوليات المحلية وحدها ولكنها تساير - الى حد ما - الكتابات الهلينيتيستية غير المنظمة ومجموعة من الأدب الشعبى الذى لازال كثير منه متداولا فى العالم اليونانى . وتروى الملحمة قصة أمير عربى من الشام كان راكبا فى كبادوكيا على الحدود فأسر ابنة قائد رومى من أسرة دوكاس Doukas التى كانت قد أبعدت عن ديارها وضياعها . وقد هرع الاخوة الخمسة للفتاة واسمها ايرين لاستنقاذها من الأمير العربى واسمه

---

(٩٤) دكتور مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين - المجلة التاريخية المصرية م ٣ ع ١ مايو ١٩٥٠ .

http://al-maktabeh.com

منصور الذى طلب أن يتزوجها على أن يحضر مع أتباعه الى بلاد الروم ·
وذكر الأمير أنه ابن لرجل يدعى Chrysocherpes ، وابن أخ لمن يدعى Karös وحفيد للأمير الكبير Ambron ، كما ذكر أن أباه قد توفى ، وأن أعمامه العرب قد حولوه الى الاسلام · وقد وافق الاخوة على تزويج أختهم من الأمير العربى منصور ، وعاد الجميع فرحين الى بلاد الروم حيث جرى تعميد منصور وزواجه من ايرين · **ومن ذرية الزوجين السعيدين ولد باسيل الذى عرف فيما بعد بديجنيس ـ لأنه ولد من تزاوج عنصرين، واكريتاس ـ لأنه اختار المعيشة وحده على الحدود** · وقد كان بارونات الحدود Akritae يلحقون بالفرق الموكلة بحماية الممرات Kheisurai ـ وأحيانا يوضعون تحت قيادتها ـ ومن هؤلاء ديجينيس بطل الملحمة الذى شن حملات دائمة على العرب بجهده الخاص ، وان كان من المحتمل أن يكون قد التحق بالجيوش الامبراطورية فى أية حملة منظمة · وقد كتبت اليه أمه تعاتبه من أدسا ( الرها ) فزازها أخيرا واصطحبها مع أفراد بيته جميعا عند عودته ، وتختص الكتب الثلاثة الأولى من الملحمة بالحديث عن الأمير والد منصور المسيحى البولسى الذى مزج بزواجه بين جنسين وعقيدتين بينما يتجه الكتاب الرابع من الملحمة الى باسيل ، فيصف كيف عرف الوحوش واللصوص لأول مرة ، وكيف خطب افدوكيا Evdokia من أسرة دوكاس اذ انتزعها ليلا الى العرس فى قلعة أبيه وأجبر أباها واخوتها على القبول ، ثم ركب العروسان ليعيشا وحدهما وقد بدد ديجينيس شمل اللصوص ونشر السـلام على طول حدود الامبراطورية · وقد وصلت شهرته مسامع الامبراطور الذى سار الى الفرات ـ وهو يذكر هنا لأول مرة ـ لتهنئة الفارس البطل وتكريمه ، وهناك ألقى على مسامعه ديجينيس درسا فى واجباته الامبراطورية · ويلى ذلك كتابان يضمان مجموعة من أقاصيص البطولة غير مفصلة ، فنقرأ تارة قصة حماية البطل لعروسه من الوحوش المفترسة ، وأخرى نسمع البطل يصف شـيئا من مغامراته السالفة فى الحرب · وقد بنى ديجينيس قصرا على ضفة الفرات وزرع حديقة ، وهناك عاش مكرسا مايملك للعمل الصالح وحفظ السلام ، وتوفى فى نفس المكان وهو يستعيد على مسامع زوجه ذكريات مغامراته ، وقد لحقت به الزوجة التى لم تسـتطع العيش بدونه · وقد جرى تحقيق شخصيات الملحمة وتم التعرف على بعضها ، فوالد الأمير منصور الذى يدعى Chrysocherpes هو Chrysocheir أحد قواد الطائفة البوليسية الذين عرفهم العرب باسم البيالقة وقد انهزم أمام جيش بيزنطى سنة ٨٧٣ م أما عم الأمير المسـمى Karös فهو Karbeas ( قربيـاس ) أحد قادة

http://al-maktabeh.com

البيالقة ، وجد المنصور المسمى Ambron هو أمير ملطية عمر الاقطع الذى حالف البيالقة وانما تذكر قادتهم على البيزنطيين • على أن الملحمة لا تعرض لهرطقة البيالقة وانما تذكـــر قادتهم كأعداء شجعان يصعب تمييزهم عن العرب فى سياق الوقائع • وان فكرة الأصل المزدوج فى مولد العظماء كالاسكندر وغيره هى من ايحاء الفكر الاغريقى الشرقى ، وقد أكد المؤرخون البيزنطيون مثلا الأصل المزدوج فى مولد ليو الخامس ( ٨١٣ : ٨٢٠ م ) وباســيل الاول ( ٨٦٧ : ٨٨٦ م ) • ولعل الشــاعر كان لديه شيئا من حوليات بعض المدن مثل أدسا ( الرها ) وسميساط ، وربما كان لديه أيضا بعض الحوليات الشعبية الشعرية مثل تلك التى ظهرت فى كريت فيما بعد على أثر ثورة سنة ١٧٧٠ م • ولعله وجد فى أرض الجزيرة Mesopotamia رصيدا اسطوريا خلفته القرون المتتابعة على الشرق الأدنى ، وتناقلتها لغات أخرى وأعادت صياغتها • وقد ولج الى المصادر الأدبية والشعبية ، وقد امتلك فضلا عن ذلك ملكة عقلية لمزج كليهما فى قالب الملحمة الشعرى الشعبى • وعلى الرغم من أن الشاعر يفتقد العمق العاطفى ، فقد كان لديه من الاصالة مايعطى روايته هدفا ، فهى تنشد صلاحية الحكم وضمان السلام عن طريق تحالف المسيحى والعربى ••• والقصيدة تكرر نفس القصة مع ولد بعد ولد ، وكل من الأب والابن بطل ، وليس أحدهما مسيحيا نقيا أو عربيا نقيا ، ولكنه جمع خير مافى الاثنين • **ان فى ديجينيس اكريتاس قصة مزدوجة ذات أصل مزدوج ورواية تعكس صورة التحالف القـــديم بين عرب الشام والنصارى البيالقة فى كوماجين وكبادوكيا تسوقه رسالة السلام على الحدود التى أكلتها الحروب فى شرقى الامبراطورية البيزنطية » (٩٥)** •

ويبدو من الملحمة أن المصاهرة بين الفريقين لم تكن شيئا مستغربا ، ويذكر أنه كان لجون تزيمسكس John Tzmisces علاقة liaison بسيدة من آمد (٩٦) •

***

وإذا كان هذا صدى الاشتباكات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى أدب الروم فما يكون صداه فى أدب العرب ؟؟

لقد كان من أوليات **الشعر الحماسى** الذى قيـــل فى حرب العرب للروم ما قاله أسعد الكامل فى رواية عبيد بن شريه وهو من الفرسان الشعراء :

(٩٥) B.yzantium. pp. 245:9, 299.

(٩٦) Runciman : Byz. Civ. p. 234.



http://al-maktabeh.com